مجنون الورد

محمد شكرى

قصص

4



آفاق الكتابة

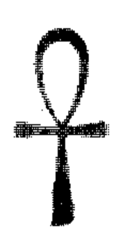


آفاق الكتابة

نوفمبر 1997

مجنون الورد





آفاق الكتابة

آفاق الكتابة

(4)

مجنون الورد

قصص

محمد شكرى

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الطبعة الثانية

القاهرة – نوفمبر 1997

لوحة الغلاف

وجهان / عادل السيوى

تقديم

بقلم الدكتور: محمد برادة



- 1 -

يفد على طنجة، عروس الشمال، كما تلقبها مصلحة السياحة، طفل لم يتجاوز سن السابعة صحبة أسرته الهاربة من المجاعة، بداية الأربيعنيات، والحرب فى أوجها.. فى مخيلته صور محدودة لقرية (بنى شيكر)، وعلى لسانه كلمات من اللهجة الريفية يحاول أن يسمى بها الأشياء. بعد قليل سيلقى القبض على الأب لأنه لاذ بالفرار من صفوف الجيش الاسبانى المتقاتل فى حرب أهلية طاحنة، لا تعنيه، هو المغربى، فى شىء..

يتقدم محمد شكرى الطفل وحيداً ليبدأ حياة التشرد دون أن يعرف المدرسة. يبدأ باكتشاف المدينة - الحياة من خلال أعمال يدوية متنوعة: مسح الأحذية، بيع الصحف والخضر، الاشتغال فى المقاهى والمطاعم، التعاون مع عصابة للنشل، ارشاد السياح، تقليد أغانى محمد عبد الوهاب فى المقاهى...

يقترب الآن من سن التاسعة عشرة وقد جرب كل شىء، واستوعب طبيعة العلاقات والمعاملات، وعرف القسوة ولم ينعم بالحنان.. وذكاؤه يحثه على أن يواصل السير ليرتاد عالم الذين

يتحدثون لغة لا تشبه الريفية ولا الدارجة، حتى لا تظل هناك منطقة يجهلها، وحتى لا يظل بعض الشباب من معارفه يعيرونه بالأمية. فى هذه السن المتقدمة يسافر إلى مدينة العرائس بحثاً عن مدرسة ابتدائية تقبله.. وهناك تعلم من التلاميذ الصغار أكثر مما تعلم من معلميه وأساتذته.. وعاد إلى طنجة «متعلماً» ليبدأ مغامرة جديدة ومثيرة مع الكتابة والأدب.. لكن شكرى الذى نخرته سوسة الحياة واغراءات التجربة لا يثقب القشرة ليرتاد الشرنقة. الحياة أولا: ادمان الكأس وادمان الليل فرارا من البلادة والجهل ومن الجنون والموت. ولم يستطع أن يقاوم وحده قساوة العيش على الهامش، فأصيب بانهيار عصبى ومكث بمستشفى الأمراض العصبية أربعة أشهر خلال سنة 1964. تبدو له الكتابة الآن نوعا من الادمان ليهدئة حساسيته المرهفة، ومواجهة فوضى الأشياء والمجتمع. ولن تعوزه «المادة»، فقد اختزنت ذاكرته وأعصابه وجسده ما لا تستطيع «اللغة الفصحى» تشخيصه. بعد محاولات قليلة، نشرت له مجلة «الآداب» قصة بعنوان «العنف على الشاطئ» سنة 1966، تلقى رسالة من الدكتور سهيل ادريس يشجعه فيها على المضى فى الكتابة...

هكذا دخل محمد شكرى المجال الأدبى، فأثار انتباه الأدباء

المغاربة الشباب «المتعلمين» فى المعاهد والكليات، وأصبح صوتا متميزا بتجربته المدّخرة، وبتعبيره العارى من الحذلقة والتصنع.. وكما فى الحياة، سيحاول الكثيرون تهميش كتابات محمد شكرى لأنها «وقحة» تسمى الأشياء ولا ترمز لها، تختار نماذجها من المنبوذين والشواذ وممن يعيشون فى الحضيض.. إلا أن جوهر «ظاهرة شكرى» لم يلتفت إليه أحد: مقابل الكتابات الرومانسية والتجريبية «الطلائعية»، ومقابل النصوص المعتمدة أساسا على «نصوص غائبة».. يأتى شكرى بمنطلق آخر: الأشياء قبل الكلمات، المعيش قبل المتخيل، الموشوم أخاديد على الجسد قبل التبشير بالأفضل ومناجاة الثورة المنتظرة ودفن الاحباطات فى القصائد والقصص الأسيانة.. وهو فى كل ذلك يصدر عن تجربته الخاصة: اكتشف الأشياء أولا وجها لوجه بدون أسرة تحميه، ولا مدرسة توجهه، ولا طفولة هنية يختزن ذكرياتها.. فتح عينيه منذ الوهلة الأولى على عالم الكبار الذين يتصارعون فى محيط المجتمع وفى قاعة لضمان اللقمة وحماية النفس، يحتكمون إلى أعراف أشبه ما تكون بقانون الغاب، والقيمة البشرية ملغاة فى عهد الحماية وعند أصحاب المخزن.. وأن تكون، إلى جانب ذلك، ريفيا مجتثا وافدا على مدينة ذات «أصول»، معناه اكتساب صفة النفاية عن جدارة.. إلا أن شكرى

لم يقبل هذا «الأمر الواقع» الذى يجعل من الأكثرية المهمشة رغم ارادتها ، خادمة لأقلية تحميها المواضعات الاجتماعية، فبدأ يعبر عن احتجاجه ومناهضته بلغة الجسد قبل أن يتعلم اللغة المكتوبة: «كنا أحيانانستعمل شفرات الحلاقة والسكاكين فى معظم العراكات التى كانت تصل أحيانا إلى حالات دامية..»

على العكس من معظم كتابنا الآخرين، تعلم محمد شكرى لغة الأشياء العارية القاسية، قبل أن يتعلم الكلمات «المعبرة»، لذلك تظل حياته اليومية هى الأساس، وتغدو الكتابة بالنسبة له ادمانا جزئياً يرفض أن يجعل منه قناعا للتجميل أو مطية للارتقاء فى السلم الاجتماعية..

- 2 -

الخيوط التى ينسج منها شكرى تنتهى إلى رسم «جغرافيا سرية» للمدينة ولتحت - أرضها. تبدأ تناسلها، جميعها، من مناخ الهامشيين أو من عالم الأطفال يبدأ الحكى بتلقائية توهمنا أنه يحكى واقعة من «الوقائع المختلفة» شاهدها فى الطريق أو قرأها فى الصحيفة وأعاد صياغتها. لكن هذا التوهم سرعان ما يبدده سطوع كلمات مفاجئة وعبارات مكثفة محملة بالإيحاءات

والدلالات، تنقلنا إلى عالم قصصى تؤطره وتوحده تلك الخيوط المتناثرة فى مختلف القصص. قوام هذا العالم عند شكرى، الهامشيون أو الليليون (مقابل النهاريين كما يحلو له آن يقسم الناس)، الذين صنفتهم المؤسسة الاجتماعية فى تراتبيتها الهرمية لتجعل منهم نقيضا للمواطنين «العاديين» الأساسيين.. هم، إذن، من يضرب بهم المثل عن الشذوذ واللاأخلاق والرذيلة والفحشاء والمنكر.. ولا يمكن لمجتمع أن يتصور نفسه بدونهم، لأنه إذا كان من الصعب تشخيص «الفضلاء» وممثلى الاستقامة بكثرة، فإن من السهل تكثير المنحرفين وتهميشهم لاستعمالهم كنماذج لا تحتذى وكسلوك يزجر عنه، ويعاقب عليه.. فى قصة «بشير حيا وميتا» يجسد شكرى هذه العلاقة الغريبة بين العاديين العقلاء، والشواذ المجانين: بشير «الأحمق» يقلق الآخرين لكنه يسليهم لأنه ليس ماهم. يتحلقون حوله وهو ممدد فى الشارع متمنين موته. وعندما يستيقظ من غيبوبته بخيبة أمل: «سينظرون إليه كشبح وهو يسير بينهم».

الأطفال أيضاً لا يفهمهم العقلاء مع أنهم «ليسوا دائماً حمقى»، إلا أنهم يركبون عالم الكبار المصنوع من الضوضاء والكلام المجانى وافتعال المشاعر والأفكار. بدلا من ذلك يقترح الأطفال الصمت والحلم واطلاق سراح الحمائم!

التلقائية نفسها التى يحكى بها، تلازمه وهو يسمى الأشياء المكونة للاهتمامات اليومية عند أشخاصه الهامشيين. ويكون الجنس فى طليعة تلك الاهتمامات. إن الثنائية الفاصلة بين الأشياء تنعدم فى سلوكاتهم، والجسد كلى، به يواجهون العالم ومنه يستوحون ردود الفعل.. والشهوة تختلط بما هو نباتى وحيوانى، بالوجود والعدم: «.. يتأملها أرسلان. هى تستريح مغمى عليها وهو يستريح لاهثا. تمتزج الرغبة فى ذهن أرسلان بالشروق والبحر، تمتزج بالأزهار وطيور الصباح، تمتزج بطنين الذباب والخبز اليابس الأسود، تمتزج تلك الرغبة فى حواسه برائحة القارئ والموت والصمت الطويل» (من قصة «القئ»). ولعل قصة «الخيمة» التى حالت الرقابة دون نشرها، هى أجمل نموذج تتحقق فيه فكرة شكرى عن الجنس - إلا له حين يغدو فرحة وعيدا ووليمة وارتماء فى أحضان البحر، وملامسة جسدية لعناصر الطبيعة..

غير أن كثيرا من قصص شكرى تنقل إلينا الصورة البئيسة للجنس عندما يكون جسدا يباع أو كتلا لحمية تلهث وراء لذة دفنتها العقد، وغيبها الارهاق.

- 3 -

تتصف لغة شكرى باقتصاد قريب من الشح، يزكى هذا الانطباع توزيع التركيب العام على جمل قصيرة تسندها أفعال المضارع السائدة فى معظم القصص. إلا أن هذه البنية اللغوية العامة يتخللها تكسير مباغت من خلال جمل طويلة متماسكة مختلفة عن جمل الوصف والسرد. هذا «التكسير» ينقلنا من الأشياء إلى امتداداتها فى نفس الكاتب. ثم يعود النص إلى مستواه الأول قبل أن ينكسر مرة أخرى.. فى قصة «شهريار وشهر زاد»، تسود الجمل القصيرة مثل «سقط الكأس من يدها على الطاولة»، ويأتى الوصف والسرد فى رتابة مقصودة، وفجأة تطل جملة طويلة تكسر هذه الرتابة وترسم بعدا جديدا للأشياء:

« .. لو أن هذا الإحساس كان نحو الأشياء وحدها، لظللت أحدق فيها حتى أجن أو يكف إحساسى هذا الغريب عنى..».

من ثم فإن القرابة التى نستشعرها بين التقنية القصصية عند شكرى وبين طرائق الرواية الجديدة، لا تلبث أن تلاشى، لأن واقعية شكرى لا تقوم على تغييب ذاته من اللوحة. على العكس، يظل صوته حاضرا همسا وجهرا من خلال تلك الجمل المفاجئة

الصادرة عن غور عميق.

ونلمس في القصتين: «أشجار صلعاء» و«مجنون الورد» تطويرا لهذا التركيب الفني العام الذي حاولت تحديد أهم عناصره.. في هاتين القصتين تزيد كثافة اللغة ويتخلل الرمز الشخوص «الواقعين. بعبارة أخرى، تتميز الكتابة لتحد من سرعة تدفق الأشياء المتزاحمة على بوابة الذاكرة.

- 4 -

تظل العلاقة بين الكتابة والذات والواقع المعيش، حزمة من التساؤلات المتشابكة كثيرا ما تفضي بنا إلى متاهة مسدودة.. وحين أفكر في «حالة» محمد شكري، تبدو لي العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة ملتبسة، وتهتز فعالية الكتابة إزاء حضور الذات – الجسد، وإزاء انعكاسات الواقع على حيوات الناس..

هل يرجع ذلك إلى أن الكتابة ليست كل شيء في حياة شكري، وإنما هي وسيلة مكملة للتعبير عن الوجود بما هو موجود؟ أم يعود ذلك إلى المنطلق منذ الأزل وسيمتد إلى الأبد غارقا في صراعاته وهلوساته وبؤسه المادي والمعنوي؟

ما يزكي هذا الانطباع الأخير في نفسي هو غياب المحور

الآخر، محور الفئات «الأساسية» فى علائقها الجدلية مع الهامشيين. من ثم انعدام ردود فعل «واعية» عند هؤلاء الأخيرين. ربما لأن الكاتب يخشى من ضجيج الشعارات وتكرارية التبشير، إلا أن هذا العزل يحجب عن العالم القصصى لمحمد شكرى أشعة الوعى التغييرى المتناسل عبر جميع طبقات المجتمع المغربى بحثا عن أفق لا يهمش الأغلبية.. وحين يبتعد شكرى عن رصد عالمه الخاص، ويطل على العالم - المجتمع، تتخذ قصصه صورة الحلم - الفانطاستيك، كما فى: العائدون، والشعراء والزاحفون.. ولعل قصة «الكلام عن الذباب ممنوع»، هى أنضج نموذج عنده فى محاولة معانقة كابوس القمع والتعذيب وخنق الحريات.. إلا أن تجربة العالم الهامشى تظل محفورة فى أعماق بطل «الكلام عن الذباب ممنوع» عندما يتفوه بهذه العبارة: «.. قد يعطفون عليك، لكن لا أحد يستطيع أن يساعدك».

\- 5 -

الإحساس بأسبقية الأشياء فى قصص شكرى يطرح المسألة المألوفة فى المناقشات النقدية حول علاقة الكلمات

بالأشياء أو مدى قدرتها على التعبير عما هو حى ومدرك من خلال الذات. ومسألة عجز الكلمات المزمنة.. لكن حل هذه المشكلة عن طريق الإقرار بقصور الكلمات عن تجسيد الأشياء والتجارب والعلائق، يبقى حلا سهلا يلغى ضمنيا جدوى الكتابة وضرورتها.. أو يفتح الأبواب أمام كل طارق بدون تمييز...

وفى حالة شكرى، فإن زخم أشياء عالمه الخاص الذى تبدو الكلمات قاصرة عن أن تطوله، راجع إلى أن الكاتب لا يحرص على أن يضع «مسافة» بينه وبين التجارب التى عاشها أو المشاهد التى رصدها.. من ثم تلك السخونة المنبعثة من قصصه، وأيضاً ذلك الانغلاق الذى يشبه الدوران فى فلك واحد.. ووظيفة المسافة التى يضعها الكاتب بينه وبين الأشياء، هى افساح المجال أمام التجربة لتختمر وتنخثر وذلك عن طريق إخراجها من الحيز الضيق لالتقاطها أو معاناتها، ومحاولة تقليبها فى تربة أخرى أفسح وأعمق، أى موضعتها فى اطار أعم يلتقى فيه فهم المجتمع بفهم الأدب وتجارب الكتابة وأشكال التعبير.. من ثم لا تظل الكتابة نافلة، بل تغدو تعريفا ضروريا للواقع وتركيبا جديداً للأشياء من خلال تجديلها (أى إضفاء طابع الجدلية على ما تلتقطه مبعثرا).. ويغدو واقع الأشياء، واقعا محلوما به وواقعا متخيلا وواقعا ممكنا ومستحيلا فى أن.

نحس فى قصتى «أشجار صلعاء» و«مجنون الورد»، أن شكرى يطيل المشافة بينه وبين الأشياء من خلال تكثير الأصوات داخل النص (الشاعر الكسيح، المجنون..) ومن خلال الترميز وتحميل صيغ قرآنية مضامين مختلفة.. لكن هذا المجهود فى الكتابة لا يتأسس على مراجعة نقدية لأشياء الواقع المعيش فتظل القصص مشدودة إلى «واقعيتها»، مكتظة بأشيائها (مثلما هو الشأن فى قصة التابوت).

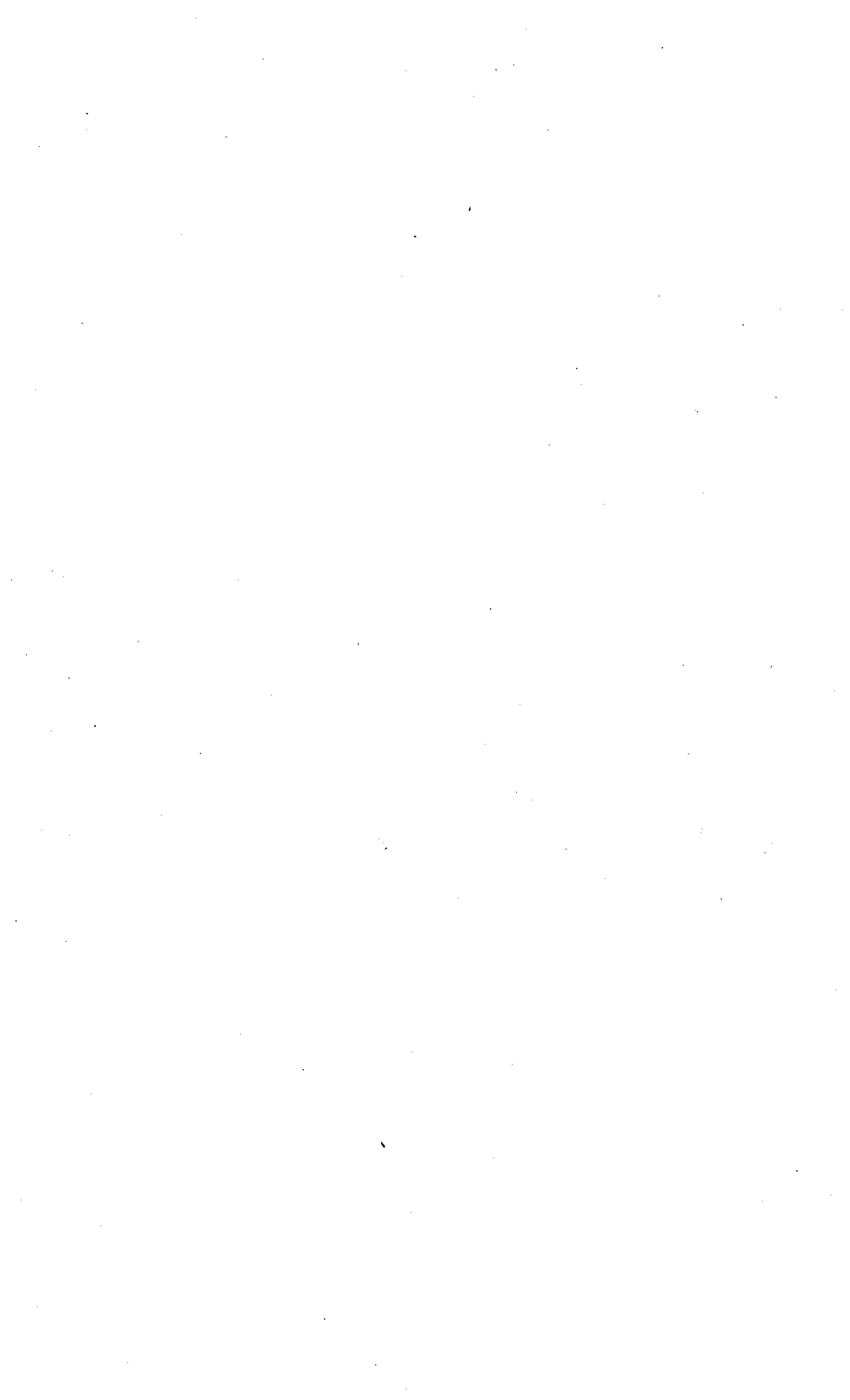
إلا أن قيمة قصص شكرى تتجلى، كما قلت آنفا، فى مقارنتها بقصص كتاب مغاربة آخرين، يستعيضون عن الفعل والتجربة والأشياء بالتوهم ولألأة الكلمات وتحليل الذات...

وأعتقد أن التحولات الأخيرة فى كتابة محمد شكرى ستحقق ذلك «التوازن» الذى افتقدته بين زخم الأشياء - الذاكرة، وبين الكلمات - المسافة.. وعندئذ تكون المواجهة بين «الهامشى» المنبوذ وبين المجتمع «الأساسى» مواجهة عنيفة لا تكتفى بتقديم عناصر صك الاتهام، بل تسهم فى صياغة الكلمة - الحلم - المعول لاقتلاع الحيف والغبن، وتفتيت قيم التحريم والتقديس.

محمد برادة



العنف على الشاطئ



جالس فى رحبة مقهى سبنترال، وضعى مسترخ، غير مبال بالعابرين، هادىء.

- ينبغى لمن يريدِ أن يلمك أن يهزك من كتفك.

هكذا قال لى صديق.

نصفى الأسفل فى الشمس، وضع لى كوب شاى، حذرنى منه:

- إنه يحوم حولك، لا تهتم به، يطلب جرعة شاى، إذا لم يعطه أحد إياها فإنه يطلب النعنع ليمتصه، بعد أن يرى الكوب فارغا.

- من تقصده؟

- ألا تراه؟ ميمون.

التفت النادل إليه، ميمون يستند إلى جدار فندق «بسيرا». Becerra

- لم أره.

أضاف بلهجة ساخطة:

- دائما يزعج لى الزبائن عندما يأتى دور عملى.

ذكّرته:

- إنك نسيت أن تأتينى بكوب فارغ.

من عادتى أن أصفى الجرعات فى كوب آخر بالتذاذ. هز النادل رأسه ثم جر قدميه.

- الملعون. يشتمنى. أنا أعرف ماذا سأفعل لهؤلاء النادلين. أتمنى أن تكون هنا لترى. (تخيل أنه يستل خنجرا) هكذا سأهاجمهم. لن يفلت أحدهم منى. (طفق يطعنهم) بعد ذلك لا يهمنى أن أختفى من هنا. سأترك لهم هذه الساحة.

بعض المارة يتوقفون. يستأنفون سيرهم هازين رؤوسهم آسفين. ظل هناك طفلان يهزآن بميمون. بعد لحظة قلت له بعطف:

- أتركهم عنك يا ميمون.

- قنابل. قنابل خضراء. السكين والدم. موتى. موتى أحياء.

أخرجت علبتى من جيبى. عرضت عليه سيجارة. اقترب. سحب واحدة. يده ترتعش. وسخة. ظهر النادل. قفز ميمون بخفة عصبية إلى مكانه. وضع النادل الكوب الفارغ. سدد نظرة خائفة إلى ميمون. قلت للنادل:

- سيجلس معى ميمون ويشرب معى هذا الشاى.

- أنت حر. لكن صاحب المقهى لا يطيق جلوس هذا

المجنون فى مقهاه. تشاجر معه مرات. جلوسه ينتهى غالبا بشجار مع الناس. أنت لا تعرف بعد ما يقوله عندما يتحدث إلى الناس.

- لن يزعج أحداً اليوم. هذه المرة أنا أضمن لك ذلك.

نظر إليّ نظرة سريعة. قال:

- أنا أحذرك فقط. أنت المسؤول إذا حدث لك معه مكروه... أنا أحذرك فقط منه.

نظرت إلى ميمون باطمئنان. يدخن بهوس. ابتسمت له. ينظر إلى النادل بسخط. التفتّ إلى النادل:

- أنا المسؤول. لن يحدث شيء خطير.

شعرتنى أهتاج. سأكون مسؤولا عن تصرفات إنسان مرفوض بهذا الشكل إذن صار ميمون مخيفا ومحتقرا.. كان دليلا. يتفاهم مع السياح بلغات كثيرة. (واحد من أحسن المرشدين فى طنجة عندما يتكلم الإنكليزية). هذا ما سمعت عنه. ذات مرة سمعته على مقربة منى يقص مغامراته فى إيطاليا والبرتغال واسبانيا. أسلوبه كان جد مهذب. رفيقته أسترالية. رأيته لآخر مرة يعمل فى متجر للصناعة التقليدية. بدأ يخيف السياح بصوته العصبى فطرده صاحب المتجر. يجعلهم يندهشون فيستعجلون الخروج من المتجر دون أن يشتروا شيئا.

هكذا قال عنه مخدومه. التفتّ إليه:

- ميمون.

- نعم.

- تعال هنا .

عقب سيجارته يترمد بين أصبعيه الأصفرين.

- ها أنا .

- أجلس.

دفعت له الكرسى. انفعل وهو يجلس:

- أترضى أن يهيننى النادل؟

- كلا.

- سألوى له رأسه هكذا (حركة لولبية) أو ألقى فى وجهه بقنابلى الخضراء.

- لن يحدث شىء من هذا . ليس هناك من يهينك إذا لم تبدأ أنت.

صببت له الشاى فى الكوب الفارغ. لمعت عيناه. تحرك إلى الوراء ووقف.

- احتفظ بدوائى وراء باب الفندق.

تشكلت على وجهه بسمة كبيرة. قسماته متوترة. دهشت: دواء! قدماه الحافيتان موحلتان. بنطاله ممزق عند أعلى فخذيه.

قميصه الوحيد فقد لونه الأصلى. عاد يشطب الهواء بالبقلة.
همست لنفسى: نغنع وحشى. قال:

- هذه البقلة تداوى.
- ماذا تداوى؟
- تداوينى.
- ماذا تداوى فيك؟
- لا شىء. تطرد المرض من جسمى.
- أنت مريض إذن.
- لا. إنها تحمينى من المرض.

أعرف أن البقلة المرة تعتبر نوعا من الأدوية الشعبية تطبخ مع الزبيب والشعير ويُشرب المحلول على الريق. يعتقد بعض الناس أنها تعالج السل وأمراضا أخرى.

بدأ ينتف الوريقات ويضعها بعناية فى الكوب. عرض علىّ نتفا. حين ألحّ أطبقتْ على كوبى راحتى. ابتسمت له:

- لا يا ميمون. ليس هذه المرة. حين أمرض سأطلب منك أن تأتينى بهذه البقلة الجيدة.
- لكن يجب أن تمنع عنك المرض من الآن. إنها تداوى كل الأمراض.
- لست مريضا الآن يا ميمون.

تأمل سبابته. بدا لى كأنه يستشريها. أدخلها فى الكوب.
فكرت: ملعقة من لحم ودم. دفع الوريقات إلى قاع الكوب بلذة
مهووسة. مص أصبعه. تمتم بكلمت لم أفهمها. لم أشأ أن
أعترض عليه بشيء. رشف بعذوبة مسموعة. أحسست بمسيل
حلو ساخن يملأ فمى. فكرت فى مزيج العسل والزبدة. سألنى
وعيناه تبرقان:

– ومن هو الآن فى الجنة؟

خيل لى أنى لن أطفئ لهيب عينيه.

– أنت وحدك يا ميمون.

– وأنت؟

– أنا؟

– نعم. أنت.

– آه! يا إلهى! أنت ترى.. إنى هنا..

قهقه داخل كوبه. امتلأ الكوب بالضباب. جبينه يفرز العرق.
تتزاحم الجبات على صدغيه وجانبى حاجبيه ومنبت أنفه.
أساريره تقسو وتنبسط. عددتها: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

– قل لى يا ميمون، لماذا لا تشغل؟

عبس. خيل لى أن شظايا تنغرز فى وجهى. أحسست بألم
وهمى فى عينى كالخروج من الظلام ومواجهة الشمس. دغدغات

تشطب أحشائى. ابتسمت له. انتظرت جوابه. ينظر إلىّ بتوهمه الحقيقى، المخيف. لكى أخفف عنى هذا الاضطراب مددت يدى إلى علبتى فوق الطاولة. أطبقت يده على يدى بقوة. ابتسم بِرَدٍ ساذج عصبى ثم صرّت أسنانه. خف ركض القشعريرة فى أحشائى المرهفة.

– وأنا؟ ألن أدخن من سجائرك الجيدة؟

– ارتبكت.

– إنما أردت أن أعرض عليك واحدة يا ميمون.

– ها. هها. أنت طيب. ها. هها.. أنت طيب جدا معى. ها. هها... أنت طيب جدا معى. ها. هها.. أنت أخى. ها. اسمك؟

– سامى.

– هاهاها.. أنت أخى يا سامى. ألست أخى؟

– نعم، أنا أخوك.

– أنت مثلى تماما. ألست مثلى؟

– نعم، أنا مثلك.

– أنت هو أنا، وأنا هو أنت. أليس كذلك؟

– نعم، إنه لكذلك.

– ينبغى لك ألا تكون مثل الآخرين يا سامى. يجب عليك أن تكون مثل ما هو أنت معى ومثل ما هو أنا معك الآن.

توقف شاب ليسخر منه. مر بجانبه شاب آخر جاذبا إياه من كمه ومضيا. ألتفت إلى ميمون بحزن:

- أتريد أن ترى دمه مسفوحا هنا في هذه الساحة؟ سيأتي رجال المطافئ ويغسلون الأرض.

- لا، لا يا ميمون. أترك هذه الساحة نظيفة. الدم سيلوثها. ربما سيلوثك أنت كذلك. أنا أيضاً لا أريد أن أتلوث بدم أحد.

- أنا هكذا يا سامي: أرى دائما دم من يغيظني مسفوحا على الأرض وهو يتمرغ مثل كبش الضحية في يوم عيد الأكباش. إنني أهدأ عندما أنتقم.

- وأنا، هل أغيظك؟

- ليس بعد. لكن يجب عليك أن تكون صديقي. لابد أن تقرضني بعض المال لأهاجر إلى أوستراليا.

أحسست بارتجاف يركض في أحشائي. قلت بمسكنه:

- لكنني لا أملك مالا. أنا مثلك يا ميمون.

ردد بانفعال:

- يجب علي أن أذهب إلى أوستراليا. لن أبقى هنا وجوني هناك.

أخذ يمتص ثمالة الكوب. إذن المتاعب تأتيه من أوستراليا.

دمدم:

– الهجرة. الهجرة يا سامى، عندما يحب الإنسان امرأة مثل جونى.

– لكن لماذا أوستراليا بالذات يا ميمون؟

– لأنها هناك. أنا أحبها وهى هناك.

– من؟

– جونى. ألا تعرف جونى التى كانت معى؟

– لا، لا أعرفها. لكن المسافة..

أوقفتنى حركته السريعة. أخرج جواز سفر ممزقا. بعض أوراقه منزوعة صورته فى الجواز تجعدت. ردد بعزم:

– أنا أستطيع أن ألحق بها. هل تعتقد معى ذلك أنت يا سامى؟

– طبعا تستطيع. لكن ذلك يكلف متاعب يا ميمون. (أضفت) أكانت جونى طيبة معك؟

– لم أعد أذكر. لكنها لن تستطيع أن تنكرنى إذا هى رأتنى ألحق بها. قالت لى يوما بأنى الوحيد الذى يعرف كيف يعطيها اللذة.

ابتسمت له.

– سعادتها إذن هى فى المضاجعة الكاملة معك.

– نعم. أنا هو سعادتها.

أخرج من الكوب أوراق البقلة. يجترّها. فكرت: إنه يسترد عقله حين يتحدث عن جونى. عقله فى أوستراليا وهو هنا. يحدثنى من أوستراليا حين يعى ما يقوله. الماضى: جونى والبقلة المرة التى يجترها الآن. ميمون، جونى وأنا سنصير بقولا مرة. إن عالم اليوم هو بقول الغد. إننا بعرات يكورها طابور من الجعلان المتدحرجة.

فاجأنى:

- لنذهب إذا شئت إلى البحر.

- أسنانه ابيضّت. فمه ظل أخضر يسيل بلزوجة النعنع الوحشى.

- لماذا؟

- لنصنع هناك ملح البحر ونبيعه قبل أن تغيب الشمس.

- ليس اليوم يا ميمون.

أخرج من الكوب بقايا النعنع. يجتر بهدوء.

- ومتى إذن؟ أحتى تغيب الشمس؟.

- إن الشمس ستشرق مرة أخرى.

يتأملنى وهو يجتر النعنع الوحشى. ابتسمت له. اشتعلت نظراته. التفت إلى رجل متجهم أمامنا. نهر ميمون بإزدراء:

- غادر مقهاى.

انتفض ميمون. أشرت له ألا ينهض. اعترضت:

- لكنه الآن عاقل. لا يفعل شيئاً.

صاح الرجل باضطراب:

- أنا الذى أعرفه خيرا من كل واحد. أنت لا تعرف متى يتصرف بجنون. يقذف بأى شىء فى وجه أى كان عندما يصعد الضغط العالى إلى رأسه.

ميمون ساكت. يخافه أم يحترمه؟ تبادل معى نظرات مرتكبة، كئيبة، ثم نهض وانصرف. رأيته يقف فى أقصى الساحة متوترا، فاقدا اهتمامه بمن حوله. ينظر إلىّ بتركيز. ربما هو أيضاً حاقد علىّ لأنى هنا وهو هناك. قد يقول لنفسه: «إنه ليس مثلى». حينئذ سيشعر بمنتهى وحدته.

أخرج من جيبه خريطة بالية صغيرة وفتحها. تأملها وبسطها على الأرض وراح يدوسها بقدمه اليمنى. لفها مرة أخرى وأعادها إلى جيبه. خلع قميصه. تمدد على عتبة التلغراف الاسبانى القديم عاريا حتى النطاق. صدره الضخم الأسمر يلمع فى الشمس. تكلم رجل يجلس خلفى:

- إنه يحب الشمس. صاح يوما هنا بصوت صاخب: أنا رب الشمس والبحر وهذه الساحة.

توقف شخصان أمامه. ارتدى ميمون قميصه. جلس على

العتبة. هزرأسه لهما. تركاه هناك. ضحك بصخب. سمعت صاحب المقهى يقصّ على هرم مثله مساوئ ميمون:

- إنه يحمل لعنة والديه أينما ذهب. جاء عنده يوما أبوه السيد ادريس من الريف فأنكره ساخرا منه: «ينبغى أن أولد من جديد لأكون ابنك! إننى لست راضيا عن نفسى بأن تكون أنت أبى. أنا الآن أبو وابن نفسى: أنا ادريس وميمون». أترون إذن؟ لاشك أن أباه قد تألم كثيراً. أنا أعرف ذلك السيد الوقور: إنه رجل دين. من الدار إلى المسجد ومن المسجد إلى العمل. الرجل الذى يلد ولدا مثل ميمون يجب عليه أن يستغفر ربه على مصيبته.

اختفى صاحب المقهى. هيأه ميمون الآن جد مهمومة. تحرك. وقف. يخطو تجاهى. ماذا يريد أن يفعل الآن؟ أحد الكويين ينكسر فى وهمى. شظاياه تنغرز فى وجهى. رفع الكرسى بحركة قوية وقلبه على وجهه:

- ليجلس الآن الشيطان على هذا الكرسى.

رآه صاحب المقهى. خرج من الداخل يعوى:

- أيها المجنون، أيها الملعون، سأنفيك من طنجة كلها.

صفق ميمون عقبه براحة يده كبهلوان. صاح من بعيد:

- طز يا خالى طز!

أراد صاحب المقهى أن يلحق به، لكن أحد الزبائن أمسكه من ذراعه:

- أنت ترى كيف هو. كن أنت عاقلا إذا كان هو مجنونا. سيأخذونه بين يوم وآخر إلى مستشفى المجانين. سيكون ذلك في صالحه. لكن لا تكن أنت السبب في ذلك.

- هو يدرك ما يفعل. يبحث عمن يجنن. مجنون وغير مجنون.

توقف عن الكلام هنية ثم أومأ إليّ:

- أنت جعلته اليوم يسيء إلينا. إنه حين يجد من يتواطأ مع تصرفاته يطغى. يحسب نفسه حارس هذه الساحة.

دافعت عن الموقف:

- أنت تعرف أنه هكذا. ينبغي لك ألا تضاعف هياجه، إذا كان يجلس هادئاً.

لم يجب. قال أحد الرواد ورائي:

- البطالة هي سبب هذا الجنون.

أجابه شيخ:

- كلا. ما أظن، كان زماننا أكثر بطالة من اليوم. مع ذلك لم يكن يجن أحد بسبب البطالة. إن عدم الرضا هو الذي يتلف أعصاب الناس. القناعة هي العقل.

ميمون يقوم بحركة رياضية. بدا لي مثل بطل يتهيأ لمباراة

العَدْوِ --- قال صاحب القهوة:

- أنظروا، إنه يستعد الآن للسباق مع متبار خيالى. هو الفائز دائما فى هذه المباراة الخيالية التى يجريها مع نفسه.

ثنى ركبته اليمنى. نظر إلى يمينه ويساره وخلفه. عدا بأقصى قواه. اندهش المارة ورواد المقاهى. دمدم أحدهم فى سخط ونفاد صبر:

- أين حراس الأمن؟ يجب عليهم أن يأخذوه من هنا. إنه تعيس مجنون أفعاله تثير أعصابنا.

دار ميمون دون أن يتوقف. لدى وصوله العتبة رفع يده علامة فوزه. اقترب منه طفل أبله. طلب من ميمون أن يتاسبق معه. ميمون يكشر عن أسنانه والطفل يبتسم له بانشراح. ركله بقساوة على مؤخرته. قفز الطفل مبتعدا وهو يعوى. شتم الطفل ميمون وهرب. كرر ميمون السباق ثلاث مرات. أعطاه أحدهم فى المرة الأخيرة خبزاً محشواً. جلس على العتبة. أخذ يمضغ فى هدوء.

* * *

بشر، شمس وبحر. بعث ناعم عار. ينزلقون على بعضهم بعضاً. بحيرات سراب تتعانق. يشتهى ميمون هذه الأجسام

الطرية. عرى البشر الأسمر يمتزج فى بعضه مثل لوحة مائية. البشر ناعمون هذا اليوم. خفيفون كما يطفون فى البحر. يحقد الآن على نفسه. خشن وهم ناعمون. الشمس تعميه. النسيم فى الأزرق يلطف عماه. أضاع نفسه بما فيه الكفاية. أكثر غربة عن الناس فى هذا اليوم. زمن طويل لم أر فيه إنساناً ينظر إلى بود. لا يلتفتون إلى حينما أتحداهم بنظرات ساخطة. ما يسلينى هو أنهم يتعاملون معى بحذر شديد. الرمل ينهار تحت قدميه كوسائد من حرير. كأنى أمشى على بطون ضفادع. خيل إليه أن جسده كله سيذوب. صدى أنغام تطن فى رأسه. تعبه يخدره بلذة. «ما من أحد وحيد فى العالم». هذا أيضاً كذب. هل أنا أيضاً أكذب؟ مظهره يوحى بالضيق. الوجوه تنفر منه. يقف. يرعب المستحمين بنظراته. لا يتحرك من مكانه حتى يحس فى وهمه أنه انتصر على من ينظر إليه باستغراب. انهزامهم يسعده. اغترف الرمل. ضغط على الرمل بقوة: ذهب ينصهر حقده على الناس يتمثل له فى قوة الضغط على قبضة الرمل التى تظل ــــ الرمل. البشر ينعجنون فى قبضة الرمل هذه فى يدى. سيجفّون، ذات يوم، مثلما أحسّ الآن جسمى من الداخل.

خرجت شابه سمراء من البحر:

صدرها يفيض

الله فى القلوب

تسيل فى رشاقة

الله فى المياه والسراب

عيناها ترفان

فراشتان فى احتضار

الله فى الضياء والظلام

تسير فى اختيال

الله والجمال أينما نكون

لو أننى إله

وهبتها الخلود

انتفض بلذة وغضب. تطلعت إليه مرتعشة. فقدت رشاقتها واختيالها. قضمة واحدة من جسمها وينتهى هذا الجفاف من جسمه. تيقظ ثعبان الشهوة هائجا فى عينيه. احتمت الشابة بذعر بين شبان منبطحين. تمددهم يبدو لميمون مثل سردين ينشوى. يضاعفون جوعه وظمأه. أجسامهم مشتهاة. التقط بعض الأصداف. يقلبها فى يده. لو أنها جواهر للحق بجونى. يا اله الحظوظ! جوهر هذه الأصداف لالحق بجونى. دخل فى عالم مسحور. طفق يعى نفسه بسكينة.

كان شغوفا برؤية الأصداف على شاطئ الحسيمة. نسيم

البحر يخترق قميصه. بين لحظة وأخرى يحسّ مسيلا تحت
إبطه. كف عن الحلم. رأى شابا فى سباق عنيف مع نفسه نحو
البحر. اتخذ ميمون استعداده. وصل الشاب. طار ميمون كديك:
شروب... شروب... شرووب... شروووب... شرووووب... انتفض
الشاب مندهشا فى الماء. ظل ميمون غائصا. طفا بعيدا. خبط
بعنف. غاص من جديد. يسبح مثل كلب البحر. يندفع بقوة.
انبثق واقفا. يتنفس بقوة كسمكة خارج الماء، منهوك. خرج.
يسيل. اسماله تلتصق بجسمه مثل شمع يذوب: تمثال مصبوب
فى قالب من الجبس لم يصقل بعد. مشى على الشاطئ. فتحة
سرواله تكشف عن ثعبانه منكمشاً بين تينتيه الفجتين. ارتمى
على وجهه. أسند رأسه على ذراعه اليسرى وترك الأخرى تمتد.
صداع قاس يؤلمه فى صدغه الأيمن. وجع فى أحشائه. فى
جسمه جدب قاتل. غفا. تنفسه المتعب يكنس بقعة الرمل المظللة
بوجهه وذراعه. بدا مثل سمكة ضخمة تقيأها البحر

* * *

عرق، دوخة وغضب، استيقظ. أسماله تحرقه. رأسه، أبطاه
وثنيات بطنه تنبجس بالعرق. خلع قميصه. رشته نافورة هوائية.
مشى نحو الماء. الله فى البحر. قميصه فى يده كأرنب برى

ميت. غطس رأسه فى الماء. رأى مويجات الرمل تتشكل: الله فى الأعماق والسطوح. تسربت إليه نشوة بحرية. خرج. يسير. يتيه. قميصه يسيل فى يده. مشدود جسمه كطبل. سرواله يندعك. يلمع. تعب من التفكير فى الناس. ها أنا كما شئت أن أعيش بينكم. يود لو أنه يبتهج من أجل عيد ميلاد مجهول مع الناس، لكنه فقد هذا الاحساس القديم:

– لسنا لا خيرا ولا أسوأ من الناس..

– وماذا نحن يا أماه؟

– ألا تعرف؟

– كلا.

– إننا هكذا، إننا كما ترى يا ولدى...

– وهذا الضجيج فى الخارج؟

– لا تتكلم هكذا. ألا تعرف أننا نحتفل؟ ينبغى لنا أن نعتز بأعيادنا. اعترض أبوه بتذمر:

– كلا. ليس هكذا. لاتعرفين شيئا عن أعيادنا. كل عيد هو خطايا واستهتار فى الشوارع.

* * *

وحدة بشرية تلمع فى الشمس من بعيد. يقترب من تلك

الشهوة العارية. رأس المرأة ملفوف بفوطة. جسم حى معد للتحنيط. نظر خلفه. المستحمون مثل أقزام. حقل رملى مزروع بالبشر. تتقارب رؤوسهم وتتباعد. تفور الشهوة في جسمه. سقط قميصه من يده. ينفعل بجنون. دغدغات لذيذة ترعش جسمه. يساط بأغصان مبللة فى خياله. رأسه يدوخ بعذوبة. رحيق ينبجس فى فمه الناشف. رائحة أنثوية تنشى أنفه ممزوجة برائحة البحر. لم يلمس امرأة منذ هجرته جونى. تلمست يده بارتجاف جنشه المثار. جونى! جونى! ها أنا أراك. الله لا يجوهر الأصداف. الله فى أوستراليا وهنا. الله أينما نكون. ثعبانه يدخل فى جحر جونى فى الخيال. عريه يخشوشن بعنف. عيناه ترمشان فى الشمس يرسم ظله على الجسم الممدد فى الشمس. لم يعد يرى سوى شقرة خفيفة تسقط عنها ورقة التوت الوهمية. يرتمى بعنف عليها. يلتذ ويلغو. تخبط بيأس وتصرخ. زمن ثقيل فوقها. أظافره فى جلدها. كم كانت جونى تحب أن يمزق ثياب نومها على جسمها! ملح جلدها فى فمه ممزوج بدم خدوشها. ينهض. يلتفت نحو طابور الأقزام متسابقين نحوه. بصق عليها. تنظر إليه باشفاق وخوف لذيذ. نظر إلى البحر. حنين قديم ينبعث فيه نحو البحر. يندفع. فرار.... فرار... فرار... شروب... شرووب... شروووب... شرووووب...

شروووووب... خبط أعمى ناعم. أطماره على الرمل كأخطبوط ميت. وقفت منذهلة. الأقزام صاروا عمالقة، ميمون يحتمى فى البحر الذى يقدسه. هى واجمة خرساء.

الأقزام - العمالقة يتساءلون فيما بينهم:

- ماذا يريد أن يفعل؟

- سيخاف ثم ينقذ نفسه عندما يبتلع الماء. سترون.

- يجب علينا أن نفعل شيئاً من أجله.

- أنظروا إنه واقف كأنه فى بئر.

غاص. بعد لحظة عام فوق الماء من جديد.

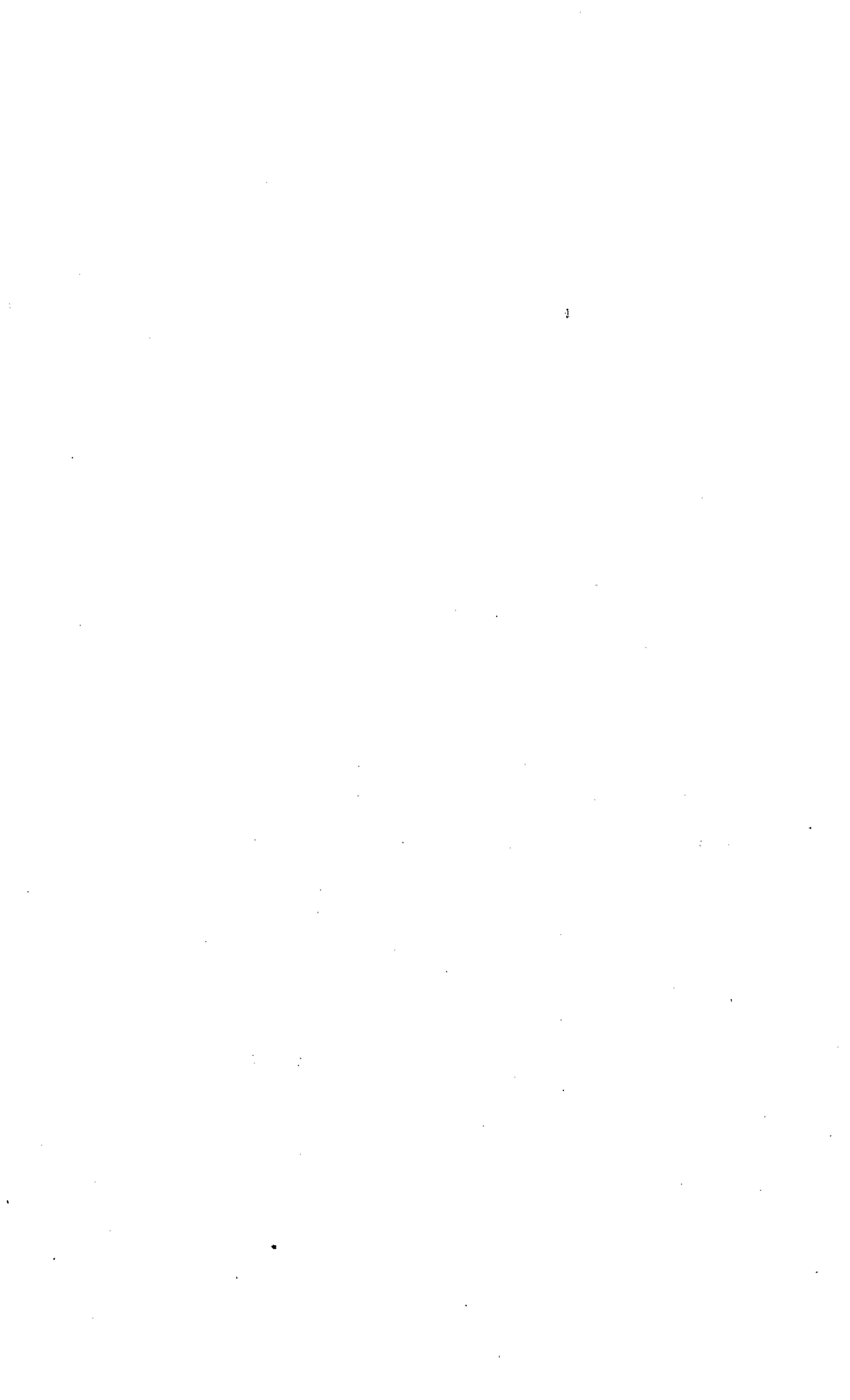
- إنه يستغمى.

غاص ثم...

طنجة 1977

الشـبكـة

إلى الطفل: «شكيب بوزيد»



قطع الشاطئ من بدايته حتى وصل قرب مراكب الصيد الراسية خارج البحر. سيقطعه، ذهابا وإيابا، أربع أو خمس مرات. فى كل مرة يوسع عرضا مسافة الطريق التى قطعها. يظل هناك يفتش فى الرمل حتى يشمل المنطقة التى يرتادها المصطافون.

عثر على خاتم من البلاستيك لا يسع أيا من أصابعه النحيلة. وضعه فى جيبه عساه يبيعه فى المدينة. أشياء أخرى من البلاستيك وجدها هنا وباعها لرفاقه فى حيه الفقير.

عثر على مصاصه من البلاستيك. غسلها فى ماء البحر ثم راقه أن يضعها فى فمه ليمصها.. أمه تذهب كل يوم إلى «السوق الكبير» وتقف مع النسوة العاملات المتنقلات ساعات حتى يأتى أحد ويأخذ معه إحداهن لتعمل فى منزله. حين يعود، إذا وجدها هناك، تعطيه، أحيانا، رغيفا فيه زيت وسكر.

فردة صندل من البلاستيك نصف مدفونة فى الرمل. خفق قلبه واتسعت فرحا عيناه. وضع المصاصة فى جيب سرواله المرقع. نفض الفردة من الرمل. لونها أبيض. لم تزل جيدة. راح يفتش فى المكان تارة بقدميه الحافيتين وتأرح بيديه. مساحة

النبش تكبر طولا وعرضا. الشمس بدأت تدوخه. وجهه النحيف الشاحب يعرق. أطرافه تخور. بنان قدميه تؤلمه لكثرة ما ركل من الرمل والأشياء الصلبة المدفونة.

مشى نحو البحر وغسل وجهه وأطرافه. زجاجة من البلاستيك للماء المعدنى تنقذف بين المد والجزر. قبض عليها. فارغة. نزع سدادتها. بال فيها ثم سدها. تراجع إلى الوراء. تنفس عميقا. ركض نحو حافة الماء ورماها بكل قواه. غاصت ثم طفت. خف قليلا غضبه وتعبه.

عبر الشاطئ، بعيداً عنه، أشخاص يعومون أو يستلقون على الرمال. إنه آخر الصيف وآخر الناس، هؤلاء الأجانب عاشقو البحر.

أشياء خاوية وأمزاق ليست صالحة للبيع. حمل الفردة الصغيرة وسار. التقط سطلا صغيراً من البلاستيك. ليست له يد ومشقوق من جانب. وضع فيه الفردة. أخذ الآن يسير ملتويا فى عدة اتجاهات. ذلك النبش فى الرمل عن الفردة الأخرى استنزف منه قواه. لم يفطر بعد. عزم على أن يختصر البحث عن الأشياء الضائعة. أمه قالت له مرة: «الناس لم يعودوا يفقدون أو ينسون شيئاً. إذا أضاعوا شيئا أو نسوه فغالبا لا تكون له أهمية. إنهم يتخلصون من تلك الأشياء التى تعثر عليها ولا يفقدونها أو

ينسونها».

زبل لا يباع. زبل لا يؤكل. زبل لا يصان. لكنه لا يجد أى عمل آخر يفعله غير أن يأتى إلى الشاطئ فى الصيف كل صباح وأحيانا فى المساء.

قال لأمه يوما: سأكون «حواتا» مثل أبى عندما أكبر. أبوه مات شابا غرقا فى البحر مع اثنين آخرين فى قارب صيد انقلب بهم.

سمكة صغيرة من البلاستيك. التقطها. تأملها وفحصها. وضعها فى السطل بلا مبالاة. جوعه هذا الصباح يفقده الاهتمام بتلك الأشياء التافهة التى أحياناً تسلية.

صيادون يخرجون الشبكة الكبيرة. يشدون على الحبال بقوة يتقوسون إلى الخلف حتى يكادوا يسقطون. فى شدهم وجذبهم مثل الأشجار فى ريح عاتية. ينظر إليهم بإعجاب. يتمنى لو أنه يأخذ معهم ذلك الحبل الذى يتطاير منه رشاش من الماء حين يشدونه ويسحبونه بقوة. ما يخرج من البحر ألهاه عن البحث فى الرمل الأسماك تقفز داخل الشبكة وخارجها لامعة. بعض الأسماك تنفلت من الشبكة وتعود إلى البحر.

رمى السطل. أخذ يساعدهم فى جمع الأسماك التى تقفز خارج الشبكة. لم يعارض أحد منهم فى أن يعمل معهم. لا

يتكلمون كثيرا. حين يتكلم أحدهم يصرخ بقوة ثم يسكت بالسرعة نفسها التى تكلم بها. يلوم بعضهم بعضا على طريقة سحب الشبكة وهم يعملون. بدأ يساعدهم أيضاً فى فرز أنواع الأسماك. لقد شعر أنه يستطيع أن يعمل بمهارة مثلهم فى القبض على الأسماك القافزة وفرزها. الركام الكبير يصغر والركامات الصغيرة المفروزة حوله تكبر وتكبر. الأسماك تخفق فى يديه وتناضل لكى تقفز وهو ينتشى بالعمل.

سمكة سلمون صغيرة أعجبه لونها. وضعها جانبا. لم تزل تنط وتتمرغ وتخفق.

أعطاه أحدهم حفنة من بين أصغر الأسماك. التقط السمكة التى أعجبته ووضعها مع الأسماك الأخرى. السمكة الجميلة الأثيرة لديه تخفق الآن واهنة أخذها إلى الماء ووضعها برفق.

أخذت تغوص وتطفو مثل قشرة صغيرة من الفلين. تركها هناك فاقدة توازنها، تتلاعب بها الأمواج الصغيرة ثم عاد إلى أسماكه.

شعر بقليل من الحزن من أجل تلك السمكة الجميلة. حفر حفرة ودفن فردة الصندل. وضع الأسماك والسمكة البلاستيكية فى السطل. مشى خارجا من الشاطئ. لا يلتفت الآن إلى الرمل الذى بدأ يسخن تحت قدميه. لم تعد تغريه تلك الأشياء. ينظر

إلى الأسـمـاك فى السطل الذى يضـمـه إلى ذراعـه. بعض السمكات ما فتئت تحتضر.

قرب مسبح رأى قطة ناعسة. أمسك السمكة البلاستيكية ورمى بها لها. انبعثت فى جسدها حركات كهربائية. ارتمت على السمكة تشمـها، تلحسها، تقلبها بمخالبها. تعيد ما فعلت بالسمكة ناظرة إليه بخوف وإليها باستغراب. ألقى إليها بسمكة. تخلت عن السمكة الجامدة وهربت بالأخرى حيث كانت تستظل تحت سقيفة المسبح. ترك هناك السمكة البلاستيكية وانصرف.

طنجة 1977



العـائدون

«المدينة فى خطر. فى الساعة المحددة سنبدأ نسفها»



المبكرون يلتقطون المنشور الأحمر من الطريق وعلى عتبات المنازل. المنشور مكتوب بالعربية، الفرنسية، الاسبانية والإنجليزية.

يتوقفون. يلتفتون إلى جميع الجهات. يركضون عائدين إلى منازلهم أو يتجهون خارج المدينة. يوقظون بعضهم باضطراب وعنف. يتساءلون حيارى عن معنى المنشور «لماذا سينسفون المدينة؟» «من سينسفها؟».

المنشور يبدو لهم غير معقول، لكن الرحيل يبدو لهم جد معقول يتجمعون. يتفرقون. يتشاورون. يتعاونون. يسرعون. يغمى عليهم. يرحلون راكبين وراجلين. يركضون. يعثرون. يترددون فى الرحيل. يخرجون من منازلهم. يعودون. يخرجون من جديد. الرعب يشوه سحناتهم وحركاتهم.

كثيرون خرجوا فى ثياب النوم حفاة وأنصاف عراة. نساء وفتيات وأطفال يبكون ويبولون فى ملابسهم. يتجهون إلى الجبل، إلى الضواحى والشواطىء. يتشبثون بمؤخرات الشاحنات. يركب ثلاثة أو أربعة فوق دراجة نارية واحدة. أكثرهم يلتجئون إلى الجبل ليشاهدوا منظر النسف.

لم يبق فى المدينة سوى العاجزون، الحمقى، المغامرون والحيوانات.

* * *

ظلوا اليوم كله ينتظرون نسف المدينة. فى الشواطىء كان ثمن السمك والماء غاليا جدا. استبدلوا ثيابهم بالأسماك والماء. فى الضواحى والجبل الكبير هجموا على بساتين الفواكه، الخضر والمواشى. حدثت معركة دامية من أجل الاستيلاء على عنزة مسروقة. جماعة أخرى طاردت راعيا بالطوب والحجر واستولت على رؤوس من قطيعه. تسلقوا الأشجار، ركبوا على الدواب وعلى بعضهم.

* * *

فى المساء عادوا مثلما رحلوا. كثيرون هربوا فى سياراتهم إلى المدن الأخرى. عاد بعضهم وآخرون لم يعودوا.

يرحضون. يسقطون تعبين. إثر الرعب مايزال يبدو عليهم، لكن مواجهة مصيرهم بدت فى عيونهم أقوى من الخوف.

حملوا الزهور، الأغصان، الهراوات، الفواكه، الخضر، الدواجن، العصافير الميتة والحية.

وجـدوا مـدينتـهم صـامـتـة، هادئة. هنا وهنـاك الحـمـقى والمغامرون يتمشون بلا مبالاة. بين حين وآخر تسمع ضحكات الحمقى. يتكلمون بصخب. يشيرون إلى العائدين أو إلى الفراغ ضاحكين. المنشور مايزال يبدو للعائدين غير معقول لكن عودتهم بدت لهم معقولة مثل رحيلهم.

طنجة 1971



أمـــومـــة



فى عقبة الصياغين سألتنى:

هل أنت متأكد من أنها جادة؟

- إننى أعرفها جيداً منذ سنوات. إنها تريد أن تكرس بقية حياتها لتربية طفل. لقد حدثتها عنك. اطمئنى.

- هل أخبرتها عن عملى فى الحان؟

- طبعاً. إنها أيضاً احترفت المهنة نفسها فى شبابها.

نسير على مهل نازلين إلى السوق الداخلى. انشرح وجهها. أفلتت منها ضحكة صغيرة.

- أنيسة، مالك؟

- أضحك من لا شىء.

- لا يمكن لك أن تضحكى من لا شىء. هناك شىء يُضحك. ما هو؟

- عندك الحق. لقد أضحكنى شىء ما. نسيته. أحيانا أرى صورا فى خيالى لا أعرف كيف أسميها. أحيانا لا أكاد أضحك من شىء حتى يضحكنى شىء آخر.

بين آونة وأخرى أنظر إلى بطنها المنفوخ. وجهها الشاحب

صغير جميل وطفولى. وصلنا إلى ساحة السوق الداخلى. نظر إلينا بعض رواد المقاهى. أعرف بعضهم. انتفاخ حملها ليس بارزاً جدا، مع ذلك ستلد خلال هذه الأسبوع كما تقول. فى طريق البريد قلت لها:

- إننا نقترب من المطعم.

- أتعتقد أننا سنجدها هناك؟

- إنها تنام بعد الغداء أو تثرثر مع خدام مطعمها.

وجدنا المطعم خاليا. فى أقصى القاعة حجرة مستطيلة مفروشة بالأثاث المغربى. أعرف أنها تستريح هناك نائمة أو تستلقى لتفكر فى مشاكلها. حييت الطباخة. أشارت لى برأسها إلى الحجرة. تركت أنيسة واقفة فى القاعة. دخلت الحجرة المظلمة. بدت لى السنيورا مثل حوت ميت. استيقظت.

- من هو؟

- سنيورا أليسيا. أنا بوطامى. تنامين؟

استوت جالسة. تمططت وتثاءبت.

- لست نائمة. أستريح قليلا.

إنها تشكو دائما من شىء. تلك عادتها التى تصرف بها ضجرها.

- لقد جئتك بها.

- من هى؟

- الشابة الحامل التى حدثتك عنها.

- آه! أين هى؟ أدخلها.

أشعلتُ الضوء وناديت على أنيسة. الحائط مزين بسجادة كبيرة زخرفها قصر وفارسان عربيان: الأول راكبة خلفة فتاة تخاصره وتابعه يلتفت نحو القصر وجواده يقفز فوق جدول. قدمت لها أنيسة. قلت لسنيورا أليسيا بالاسبانية:

- ها هى.

فحصتها بنظراتها الأفعاوية:

- جميلة.

- إن أبا الطفل أجمل من أمه.

- هى أيضا جميلة.

جلسنا أنا وأنيسة على المطربة. أعطتنى السنيورا سيجارة فرجينيا. أشعلت لها ولنفسى. أنيسة رفضت أن تدخن رغم أنها تفرط فى التدخين. قلت للسنيورا:

- يمكن لك أن ترى أباه إذا شئت.

- أصدقك.

قلت لأنيسة التى لا تعرف الاسبانية:

- إن السنيورا أليسيا معجبة بجمالك.

- شكرا.

- إننى أتفاهم معها.

- شكرا.

قلت للسنيورا:

- أبو الطفل أسمر وأمه شقراء كما ترين. لاشك أن لون الطفل سيكون رائعاً.

رشفت من سيجارتها وسألتنى:

- كم عمرها؟

- عشرون.

- وعمر أبيه؟

قلت دون أن أستشير أنيسة:

- واحد وعشرون. (أضفت): أعرفه جيداً. إنه شاب عصرى. أجمل شاب مغربى رأيته فى طنجة حتى الآن.

- كم تريد؟

- تريد ثمن الولادة فى مستشفى جيد ومبلغا بسيطا لتعود إلى مدينتها «خنيفرة».

- هل هى متأكدة أنها ستلد هذا الأسبوع؟

- إنها جد متأكدة. إنها لا تكذب. لقد قصت علىّ كل شىء. صدقينى يا سنيورا.

– تبدو فى صحة جيدة.

– إنها قوية يا سنيورا. تأكل وتنام جيدا، وكذلك أبوه. إنه يمارس الرياضة. يمكن لك أن أن تريه إذا شئت. إنه يجلس فى مقهى أنتيوس.

– لم أسمع بهذا المقهى.

– موجود فى الشارع الرئيسى. مقهى جديد يرتاده الشبان والشابات. إنه مقهى جد عصرى.

– أنت تعرف أننى أريد ذكرا.

– أعتقد أنها ستلد ولدا.

– كيف تعرف؟

– لست أدرى، لكن عندى إحساسا أنها ستلد ولدا. هى أيضاً تريد ولدا، رغم أنها لا تريد أن تحتفظ به.

* * *

زرت أنيسة فى شقة صديقتها ميلودة. وجدتها مستلقية على الفراش وإلى جانبها وليدها. ألقيت نظرة على الرضيع النائم.

– ماذا قررت؟

– أفضل أن أبيع نفسى على أن أبيعه.

– ماذا عسانى أقوله لها؟

- اختلق أى شىء.

* * *

وجدت سنيورا أليسيا فى الحجرة نفسها تأخذ قيلولتها كعادتها. جلست وقلت لها:

- لقد وضعت ذكرا.

قالت بانشراح.

- رائع. إنها محظوظة. هل خرجت من المستشفى؟

- نعم، إنها مقيمة عند صديقة لها.

- كيف هى صحتها؟

- جيدة، كأنها لم تلد.

- والطفل؟

- هو أيضا فى صحة جيدة، لكنه خيب آمالنا.

- ماذا حدث؟

- آسف.. إنه مسخ.

توترت ملامحها:

- أتمزح أنت معى أم ماذا؟

- صدقينى. إنه مسخ يا سنيورا أليسيا. رأسه كبير مستطيل، عيناه صغيرتان كعينى سمكة ميتة، يسراه حولاء.

ذراعاه جد قصيرتين، ستة أصابع فى كل يد، رجلاه... قاطعتنى باشمئزاز وخوف:

- كفى، أرجوك! كفى!

- آسف.

أشعلت سيجارة وراحت تدخن بتوتر. لم تعطنى سيجارة كعادتها معى. أشعلت واحدة من سجائرى السوداء واصطنعت الحزن. بعد لحظة صمت قالت:

- نقودى؟

- آسف يا سنيورا أليسيا. آسف جداً، لكن هناك أملا. (لم تقل شيئا) هناك ثلاث أو أربع حوامل أخريات أيضا يردن أن يتخلصن من مواليدهن. هن أيضا جميلات وجد عصريات. كلهن شابات أنيقات.

- لم أر نصابا مثلك. هل تريدنى أن أدفع سبعمئة درهم أخرى لإحداهن؟

قلت لها وهى تدخن بعصبية:

- كلا. ليس هكذا هذه المرة.

- وإذن.

- لن تدفعى شيئا إلا بعد أن تحصلى على الطفل الذى يروقك. أعرف فتاة ستضع قريبا. إنها أجمل من الأخرى.

صدقيني. صدقيني لآخر مرة. إنها جميلة جداً وجد عصرية.
نتمنى فقط أن تلد ذكرا.

- أقسم لك بأني لم أر قط فخًّاخا مثلك.

- صدقيني يا سنيورا أليسيا. أعدك أنك ستحصلين على أجمل طفل من بين واحدة من هؤلاء الحاملات.

طنجة 1972

الضاحكون الباكون



مد له متسول يده ضاحكا:

- أعطنى شيئا، من فضلك.

لوح له عادل بيده. يتأمله بعض الضاحكين بغرابة. وقف عادل فى الساحة. القهقهات فى المقاهى، فى المتاجر، فى الطرقات، فى الشرفات، فى كل مكان.

اثنان يتعاركان ضاحكين. تنزف الدماء من وجهيهما. يجلس عادل. يتأملونه بغرابة. قال النادل ضاحكا:

- ماذا ستشرب؟

-قهوة.

تأمله النادل ضاحكا. توقفت امرأة وطفلها ضاحكين، تهزه من كتفه ضاحكة:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

قال الطفل ضاحكا مدورا سبابته على صدغه:

- أنت حمقاء. أنا لم أفعل ذلك ولم أقل شيئا.

قرصت أذنه. بدأ يبكى ضاحكا. قالت ضاحكة:

- هذا ما يبقى لك. سر أمامى يا هذا البرغوش. أنا التى أعرفك.

دفعته إلى الأمام ضاحكة. الطفل يسير أمامها باكيا- ضاحكا. كف شيخ عن الضحك. سقط مغشيا عليه. تجمعوا حوله. سمعهم عادل يقولون: مريض.

- أنا أعرف منزله.

- احملوه معي.

اختفوا به في الزقاق ضاحكين. الأطفال يحفظون الدرس ضاحكين. أصواتهم تعلو على صوت معلمهم:

قد كان عندى بلبل في قفص من ذهب
ظريف شكل ريشه حلو طويل الذنب

توقفت امرأة بدينة تضحك بشدة. استندت بيدها إلى الجدار. خفضت رأسها. كفت عن الضحك. نظروا إليها بغرابة. توقف بعضهم قربها ضاحكين. استأنفت ضحكها ضاغطة على قلبها.

وضع النادل القهوة السوداء ضاحكا. يعجبون لصمت عادل وحزنه. يعجب لأفواههم الغريبة وعيونهم الدامعة بالفرح. لاحظ أن بعضهم لا يضحكون. فكر: ربما هم وافدون جدد على المدينة مثلي. قال بائع الصناعة التقليدية ضاحكا لرجل وامرأة لا يضحكان:

- هللو! هللو! كمان هيا!

قال الرجل مرحا:

- نو، ثانكيو.

مضيا ضاحكين. لاحظ عادل أن الذين يستريحون من الضحك للحظة يظلون يبتسمون ويمرحون. الغلام المقهقه يمسح حذاء أحدهم إلى جانبه. تزداد قهقهاته كلما نظر إلى عادل الحزين. يزداد عادل ضيقا بنظرات الغلام الضاحكة. حين انتهى من حذاء الآخر أشار إلى حذاء عادل. رفض عادل بحركة من يده ورأسه. قال الماسح:

- مالك؟ مريض؟

قال عادل بصوت عصبى:

- لا.

فزع الغلام. مضى ضاحكا.

* * *

قال صاحب الفندق من وراء الباب:

- كفى ضحكا، من فضلك. بعض الناس ما زالوا نائمين.

نهض عادل من سريره ضاحكا. دخل الحمام ضاحكا. قال صاحب الفندق منتحبا:

- مالك؟ هل أنت مريض؟

لم يجبه عادل. لا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك. خرج ضاحكا. فى المقاهى، المتاجر، الشرفات، الطرقات فى كل مكان ينتحبون ويحزنون. يتأملونه ويتأملونه بغرابة. وقف فى الساحة. جلس ضاحكا. قال النادل منتحبا:

- ماذا ستشرب؟

قال عادل ضاحكا:

- قهوة سوداء.

مضى النادل منتحبا. ظل عادل يضحك. عيناه تسيلان. تحمران. تنتفخان.

الكبار ينتحبون. الصغار يبكون ويصرخون. عيونهم مثل البارحة منتفخة. أفواههم صارمة. ملامحهم حزينة، شاحبة.

يضحك ويضحك. لا يعرف كيف يمنع نفسه من الضحك. وضع النادل القهوة السوداء منتحبا. تأمل عادل بغرابة. ازداد ضحك عادل. قال النادل:

- مالك؟ أمريض أنت؟

قال عادل:

- كلا. لست مريضا.

مثل البارحة. بعضهم يضحكون. فكر: ربما هم وافدون جدد على المدينة مثلى.

قال صاحب الصناعة التقليدية منتحبا لرجل وامرأة لا ينتحبان:

– هللو! هللو! كمان هيا.

قال الرجل بمرح:

– نو، ثانكيو.

مضيا ضاحكين. مد له المتسول يده منتحبا:

– أعطني شيئا، من فضلك.

أعطاه عادل ضاحكا نصف درهم. أشار الماسح منتحبا إلى حذائه. تأمل عادل حذاءه ضاحكا. رفض بحركة من رأسه ويده. أعطى للغلام نصف درهم. مضى الماسح منتحبا وحزينا. يتأملونه بغرابة. يزداد حزنهم وانتحابهم ويزداد عادل ضحكا ومرحا.

لاحظ عادل أن الذين يكفون عن الانتحاب يظل الحزن عميقا على وجوههم.

طنجة 1971



الأطفال ليسوا دائما حمقى



المسيرة بدأت من أحد الدروب. عددهم سبعة. اثنان يحملان لافتة بيضاء لا شيء مكتوب عليها. يتقدم المسيرة طفل يحمل حمامة بيضاء فى قفص أخضر. فى كل درب يمرون منه ينضم إليهم أطفال آخرون. يحملون أقفاصا فيها عصافير. تتبعهم كلابهم. كثيرون يحملون بين ذراعيهم قططا وأرانب وديوكا وكتاكيت. المسيرة تكبر كلما خرجوا من درب ودخلوا فى آخر. لم يعد ممكنا أن يعد عددهم. صامتون كما لم يبدوا من قبل. مسيرتهم تجعل المارة يبتسمون، لكن لا أحد يضحك. يتساءل الناس عن معنى المسيرة. الحيوانات التي يحملونها تزيد المسيرةغموضاً. الكبار لا يعرفون. قد يكون السبعة الصغار وحدهم يعرفون.ربما حتى الأطفال الجدد المشاركون فى المسيرة لا يعرفون. لا يتكلمون، لا يتدافعون. لا يتسابقون. يسيرون ويسيرون بين الدروب القديمة. يتكاثرون. عددهم الكبير وصمتهم الجدى يدهشان بعض المارة. عاقلون اليوم أكثر من المألوف هؤلاء الأطفال. هكذا قال الناس. آباء وأمهات، يسيرون مع المسيرة. يمشون خلفها أو إلى جانبها. الأطفال ينفصلون عن آبائهم وأمهاتهم وينضمون إلى المسيرة. طفل فى الطريق

يبكى. يريد أن يشارك فى المسيرة وأمه الخائفة تمنعه. ظل يخبط ويبكى ويعض يديها حتى انفلت منها وانضم إلى المسيرة صامتا، هادئا. حتى دموعه لم يمسحها لكى لا يشوش نظام المسيرة.

حينما وصلوا إلى الساحة الصغيرة توقفوا للحظة. وقف رواد المقاهى احتراما للمسيرة. تجمع حولهم جمهور كبير. أناس يطلون من شرفات الفنادق والمنازل. صامتون هادئون. لا يلتفتون إلا إلى الأمام. يشكلون عالما خاصا بهم. لم يكن يرى أى طفل بعيدا عن مسيرتهم. - حين يعقل الأطفال بهذا الشكل فإن الكبار عليهم أن يحترموهم. إن العالم يبدو له معنى آخر.

هكذا قال أحد المارة لصديقه. تحركت المسيرة إلى الأمام. وصلوا إلى الساحة الكبيرة. توقفوا. شكلوا دائرة. تقدم إلى وسط الدائرة الكبيرة ثلاثة. رفع الطفلان الطفل الذى يصغرهما على كتفيهما. أخرج الطفل الصغير ورقة بيضاء لا شىء مكتوب عليها. أخذ يخطب فى صمت. يفتح فمه دون أن يقول شيئا. ينظرون جميعا إلى الخطيب الصغير الذى يفتح فمه ولا يقول شيئا. حين انتهى من خطبته الصامتة طوى الورقة ووضعها فى جيبه. صفق الصغار والكبار. أنزل الطفلان زميلهما الصغير برفق تقدم حامل الحمامة البيضاء فى القفص الأخضر وأطلق

الحمامة فى الهواء. أطلق الأطفال الآخرون مئات العصافير والحمائم فى الهواء. سرحت أيضا الحيوانات التى لا تطير. صفق الجمهور. زغردت البدويات والمدنيات اللواتى يلبسن الجلباب واللثام. كل الناس الآن يبسمون ويضحكون. تعطلت حركة مرور السيارات بضع دقائق. لم يسمع أى صفير سيارة احتجاجا على تعطل المرور. يتأملون جميعا العصافير والحمائم المحلقة والحيوانات التى لا تطير تقفز بين أرجلهم دون أن يمسها أحد. بدأ الأطفال يتفرقون فرحين هاتفين:

– عاشت الحمائم!

– عاشت العصافير!

– عاش الدجاج!

– عاشت الأرانب!

– عاشت القطط!

– عاشت الكلاب!

آباء وأمهات يضمون أبنائهم ويقبلونهم

طنجة 1973



شهريار وشهرزاد



رن الهاتف ثلاث مرات. فى المرة الرابعة فرك شهريار عينيه وأمسك السماعة.

- نعم، من يتكلم؟

- شهريار، صباح الخَر! اسمع، نحن ننتظرك فى مقهى الكوميديا.

- أعتذر. لا يمكن لى أن أذهب معكما.

- لماذا؟ ماذا حدث لك؟

- فيمط بعد، فيما بعد سأحكى لك؟

- هل أنت<مريض؟

- لا أدرى.

- وإذن، فماذا حدث لك؟

فكر وقال:

- لا أدرى. فيما بعد ستعرف.

- إنك غريب هذا الصباح. اسمع..

- ماذا؟

- قم بجولة راجلا إلى «الجبل الكبير». إنك سترتاح.

- طيب. شكرا.أتمنى لكما رحلة سعيدة.

- إلى اللقاء.

وضع السماعة. نزل من السرير، تمطى ثم ذهب إلى الحمام. نظر إلى المرآة: الوجه نفسه. غسل وجهه. لم يمسحه بالفوطة. أحس بقطرات الماء تسيل على صدره. دخل غرفة النوم. الصور نفسها: أمه شهرزاد، خالته شهرزاد، صديقته الاسبانية شهرزاد، أخته شهرزاد مع صديقتها شهرزاد السمراء وشهرزاد الشقراء ثم صورته هو عندما كان فى العشرين.

خرج إلى السطيحة. كما هى عادته: نظرة نحو «ليسيه رونيو»، نظرة نحو البحر، نظرة نحو هضبة «الشرف» ثم نظرة نحو شارع جويا. ظهرت فتاة فى شرفة المنزل المجاور. أخذت تنشر ثياب النوم النسوية. قميص نومها طويل وشعرها الكستنائى معقوص، جسمها ممتلئ ووجهها فى شكل القمر مورد.

– هل أنت ابنة السيد شهريار الحجاج؟

– نعم.

– أنا أعرف أباك. أعرف أيضاً أمك شهرزاد. (نظرت إليه نظرة غريبة خاطفة) أنتم تسكنون اليوم هنا إذن.

– سنقضى الصيف فقط.

– كنت مازلت صغيرة جدا عندما كنت أعطى دروسا لأخيك شهريار وأختك شهرزاد فى منزلكم.

- عندما كنا نسكن فى القصبة.

- تماما، كنت أنت صغيرة تتعلمين المشى.

- لا أذكر.

انتهت من نشر الثياب ثم أسندت مرفقيها على حاشية حاجز الشرفة.

ما أسمك؟

قالت بدهشة:

- هل نسيت اسمى؟

- كنت صغيرة جدا. كنت تمشين لكنك لم تكونى تتكلمين بعد.

- اسمى شهرزاد.

- وعمرك؟

- ست عشرة سنة.

- لقد كبرت.

نظرت إليه باسمة واختفت. كعادته، نظرة إلى ساحة ليسيه رونيو، نظرة إلى البحر. نظرة إلى هضبة «الشرف» ونظرة إلى شارع جوبا.

دخل الغرفة. ذهب إلى الحمام. نظر إلى المرآة: الوجه نفسه. لقد نشف الآن من قطرات الماء. دخل الغرفة. ألقى النظرة

الخاصة على كل الصور كما هى عادته. فكر فى إحساسه الغريب الذى يجعله هذا الصباح ينظر إلى الأشياء أكثر من اللازم.

نهض وخرج إلى السطيحة. كالعادة، وزع النظرات الأربع بالترتيب ظهرت شهرزاد لابسة قميصاً آخر مخططا باللونين الأخضر والبرتقالى. شعرها الطويل الأملس مرسل الآن. استندت على حاجز الشرفة ونظرت إلى السماء. نظر إلى صدرها الممتلئ ثم نظر هو أيضاً إلى السماء. لا أذكر متى نظرت آخر مرة نحو السماء.

دخل الغرفة. سحب سيجارة من العلبة وأشعلها. وضع العلبة وصندوقة الوقيد فى جيب منامته. فكر: كنت فى الحادية عشرة عندما دخنت أول سيجارة. كان يوم عيد الأضحى. جلست فى مقهى السيد العدلانى ودخنت أول سيجارة. شربت أيضاً شايا أخضر. كان ذلك فى تطوان سنة 46. أما السماء فلا أذكر أول نظرتى إليها ولا آخر مرة حتى ذكرتنى بها شهرزاد ابنة السيد الحجاج. ها هى اليوم تستيقظ فى إحساسى الغريب بعض النظرات القديمة المنسية وبعض النظرات الجديدة التى بدأت أكتشفها.

خرج إلى السطيحة. مثلما تعود أن يفعل ألقى النظرات

الأربع بالترتيب ثم أضاف النظرة الخامسة المنسية إلى السماء. كانت النظرة السادسة قد اختفت. ربما نظرت إليها أكثر من اللازم. قد تكون ظنت أنى سأغازلها. فى الحقيقة لم أشعر بأية رغبة لمغازلتها.

دخل الغرفة. أخذ يلبس ثيابه. يوم الأحد. أين سأذهب اليوم؟ هل أقوم بجولة إلى الجبل الكبير كما نصحنى صديقى شهريار السمين؟ بعد حوالى ساعتين سيكونان، هو وصديقه شهريار النحيف، فى سبتة. أنا لا أدرى بعد أين سأكون بعد حوالى ساعتين.

ذهب إلى الحمام ومشط شعره. الشعرات البيضاء كلما حدق فى شعره الغزير الأسود. لمس وجهه: لن أحلق هذا الصباح. كنت قد سألت صديقتى الأمريكية النحيفة شهرزاد:

– لماذا تخليت فى هذه الأيام عن الذهاب إلى الشاطئ؟ إن لون الشمس يناسب وجهك.

– صحيح؟ شكرا. لكن لمن سأجمل وجهى؟ لمن؟ هل أجمله لك؟

دخل الغرفة. ألقى النظرة الخاصة على الصور. كالعادة، أخذ ثلاثة كتب وخرج إلى السطيحة. ألقى النظرات الأربع بالترتيب ثم أضاف نظرته الخامسة المنسية إلى السماء. النظرة

السادسة مازالت مختفية.

الكلبة الكبيرة، السمينة، تجر الطفلة الصغيرة، النحيفة. شهريار ينظر بتركيز تارة إلى الطفلة النحيفة وتارة إلى الكلبة السمينة. كشرت الكلبة السمينة عن أنيابها وهاجمت شهريار النحيف. مالت الطفلة النحيفة بجسمها كله إلى الوراء صارخة:

- لونا! كام توا! كالم توا لونا!

تراجع شهريار بسرعة إلى الوراء وهرب إلى الرصيف الآخر. نظر نحو الكلبة السمينة والطفلة النحيفة لاهثا، مرتجفا.. التقط كتابه الذى سقط. نظر حوله. لم يكن حوله شىء يضرب به الكلبة السمينة. فكر أن يضربها بالكتب. وإذا هى هاجت أكثر وارتمت على! قالت الطفلة:

- باردون مسيو، ال نوفى ريان دومال.

فكر: لو أننى أستطيع أن آخذ الطفلة النحيفة وأضرب الكلبة السمينة.

رأى شابين قادمين يضحكان: واحد سمين والآخر نحيف. قلبه لم يزل يخفق بقوة. توقف وتنفس بعمق. سمع ضحكة ساخرة. رفع رأسه نحو الشرفة فى الطابق الثالث. ضحكت الطفلة الصغيرة مرة أخرى. قالت لها امرأة وقفت خلفها:

- شهرزاد، ألا تحشمين؟

نظر إلى الشابين نظرته الغريبة. نظرا إليه بسخرية ثم ضحكا. توقف النحيف وقال لشهريار:

- مالك؟ ألست فرحان؟

قال السمين للنحيف:

- شهريار، تعال واتركه. ألا تراه كيف هو؟

نظر شهريار إليهما وانصرف.

أخذ مجهودا كبيرا كى ينظر أقل ما يمكن إلى الناس. فكر: لو أن هذا الإحساس كان نحو الأشياء وحدها لظللت أحدق فيها حتى أجن أو يكف إحساسى هذا الغريب عنى.

توقف أمام واجهة متجر. حدق فى صورة الفتاة الجميلة اليابانية. الصورة تغمزه كلما تحرك. دخل المتجر واشترى الصورة الغمازة. طفق يحركها فى يده ويتفرج على غمزة عينها اليمنى. وضعها فى جيبه وعبر إلى الطوار الآخر وقف فى ممشى سور الكسلاء. يدخن ويتأمل البحر الذى يحبه كثيرا. مرت وراءه فتاة نحيفة وخطفت منه نظرته التى يحبها. لحق بها كى يستعيد منها نظرته البحرية التى لونت بها تلك السارقة ملابسها التى صارت فيروزية اللون. توقفت السارقة وتبادلت قبلات الخدين مع فتاةأخرى ممتلئة. قالت السارقة:

- شهرزاد، أين كنت فى كل هذه المدة الطويلة؟

توقف شهريار قدامهما يتفرج على طريقة كلامهما وحركاتهما. قالت له عينا سارقة نظرته البحرية:

- تابع طريقك أحسن لك. تابع طريقك قبل أن يحطموا لك وجهم.

- ونظرتى البحرية؟

- أيها المغفل، ألا تراها قد صارت لون ثيابى، عرّنى إن استطعت. عرّنى.

لم يستطع أن يعريها. فكر وهو يدخل مقهى باريس: لقد رأيت الفتاة السارقة فى مكان ما. رأيتها: أكيدا رأيتها. لا أذكر أين رأيتها. ذاكرتى البصرية بدأت تضعف.

جلس وطلب قهوة بالحليب. آ! أتذكر الآن: رأيتها فى هذا المقهى. كانت جالسة فى ذلك المكان قرب الباب أمامى مع امرأة سمينة تقرأ مجلة مصورة ورجل نحيف وفتاة ممتلئة تصغرها. كن يتحدثن عن فاس وطنجة وعن السمنة والنحافة والرجل النحيف صامت يقرأ جريدته العربية. فكرت يومئذ أن لهجتها من فاس. من كثرة ما أعجبت بنظرتى أفلتت من يدها كأس مشروب البرتقال على الطاولة. تلوثت ملابسها البيضاء وذهبت إلى مغسلة المقهى. قبل أن تعود خرجت هاربا. ها هى اليوم تستعيد منى نظرتها وتلون لها ملابسها الجميلة، الفيروزية

اللون. عندها الحق إذا هى استعادت منى اليوم نظرتها التى سرقتها لها فى ذلك اليوم.

قبالته. فى الركن، قدام الباب، رجل نحيف وامرأة سمينة مسترخيان. الرجل يقرأ صحيفته العربية والمرأة تقرأ مصورة حروفها لاتينية. صب له النادل السمين القهوة.

- سيد شهريار، هل يكفى؟

تطلع إليه شهريار بنظرته الغريبة.

- صب كل شىء.

- صب له كل القهوة من القدح الصغير المعدنى ثم الحليب.

- مالك؟ هل حدث لك شىء؟

- لا شىء. كل شىء كما هى العادة.

- يظهر أنك لست طبيعيا هذا الصباح.

كعادته، دفع له شهريار ثمن قهوته مقدما. قال له شهريار، ناظرا إليه نظرته الغريبة:

- مجرد إحساس يا سيد شهريار. مجرد إحساس.

ابتسم النادل السمين وابتعد. وضع السكر فى الكأس ورشف رشفتين قبل أن يحرك السكر. ركز نظرته الغريبة على المرأة السمينة. اضطربت. نظرت نحو الرجل النحيف الذى معها. نظر إليها ثم نحو شهريار الذى كانت نظرته مركزة على

المرأة. جامدة هى نظرته كتمثال. نهض الرجل واقترب من شهريار.

– مالك؟

– لا شىء. كل شىء هو كالعادة.

– لماذا تنظر إلى زوجتى بهذا الشكل؟

– أبدا. كنت أنظر إلى شىء آخر.

– أنت تكذبنى إذن. لقد رأيتك تنظر إليها.

– أبداً. كنت أنظر إلى شىء آخر وراءها.

– ما هو هذا الشىء الذى كنت تنظر إليه وراءها.

– إنه شيئى.

– شيئك!

– نعم، كنت أنظر إلى تلك الشجرة.

التفت الرجل إلى شجرة الرصيف.

– أنت تهزأ بى إذن.

قالت له امرأته شهرزاد:

– شهريار، تعال واتركه.

قال الرجل لشهريار:

– كلب!

تذكر شهريار تلك الكلبة السمينة تجر تلك القطة النحيفة.

فكر: أتمنى لو أهجم الآن على تلك المرأة السمينة وأضرب بها هذا الرجل النحيف.

عاد الرجل إلى مكانه. دخلت الفتاة النحيفة التى استعادت منه نظرتها صحبة صديقتها المكتنزة. قالت المرأة السمينة لشهرزاد الأولى النحيفة.

– شهرزاد، مرحبا!

تبادلان القبلات المسموعة ثم جلست الشهرزادتان. قالت المرأة السمينة لشهرزاد الأولى النحيفة:

– أين كنت خلال هذه المدة الطويلة؟

– فى فاس. كنت مشغولة جدا فى كل هذه المدة الطويلة. وأنت يا شهرزاد؟

– فى طنجة. أين تريدين لى أن أذهب؟

سأل الرجل شهرزاد الثانية، المكتنزة:

– أليس أبوك هو السيد شهريار الحجاج؟

– نعم. إنه أبى.

– أنا أعرف أباك. أعرف أيضا أمك شهرزاد. كنت مازلت صغيرة جدا عندما كنت أعطى دروسا لأخيك شهريار وأختك شهرزاد فى منزلكم.

– كنا نسكن فى القصبة.

- تماما، وكنت أنت صغيرة تتعلمين المشى.

- لا أذكر.

- كان ذلك سنة 58.

- لا أذكر.

أسندت مرفقيها على حاشية الطاولة.

- ما اسمك؟

قالت بدهشة:

- هل نسيت اسمى؟

- كنت صغيرة جدا. كنت تمشين لكنك لم تكونى تتكلمين بعد.

- اسمى شهرزاد.

- وعمرك؟

- ست عشرة سنة.

- لقد كبرت.

نظرت إليه باسمة وحنت رأسها. وقف أمامهم النادل السمين: طلبت شهرزاد الأولى والثانية مشروب البرتقال. سألت شهرزاد الثالثة السمينة شهرزاد الأولى النحيفة:

- هل ستقضون الصيف كله هنا.

- نعم.

- وأمك؟

- ستجىء إلى هناك مع أختى شهرزاد. إننى أنتظرهما.

وضع النادل قدحا وصب فيه إلى النصف من زجاجة البرتقال الأولى ثم وضع القدح الثانى وصب فيه إلى النصف من زجاجة البرتقال الثانية.

استدار النادل واتجه نحو شهريار. قال له:

- من الأحسن يا سيد شهريار أن تنصرف إلى منزلك لترتاح. إنك لست طبيعيا هذا الصباح.

تطلع إليه شهريار وهز رأسه دون أن يتكلم. أضاف النادل: أفهمت ما أقوله لك؟

هز له شهريار رأسه ناظرا إليه نظرته الغريبة. انصرف النادل وركز شهريار نظرته الغريبة على شهرزاد الأولى النحيفة. مثلما حدث فى ذلك اليوم. سقطت الكأس من يدها على الطاولة وتلوثت ملابسها الفيروزية اللون. التفتوا جميعا نحو شهريار الذى كانت نظرته مركزة على شهر زاد الأولى النحيفة. جامدة هى نظرته مثل تمثال.

نهض الرجل واتجه نحو شهريار. قالت له امرأته:

- شهريار، اسمع! تعال واتركه!

طنجة 1972



الكلام عن الذباب ممنوع



لم أندم على الأيام التى لم أعدّها فى سجنى. كنت أفكر فى التعذيب أكثر مما كنت أفكر فى الزمن رغم أن أيامى كانت ثقيلة.

مرت ساعتان أو أكثر. أنا متأكد الآن أنه يمكن لى أن أفقد الإحساس بالزمن وعلاقتى بالعالم الخارجى فى زمن أقصر مما كنت أظن. مرارا فكرت: ماذا يؤخرهم للبدء فى تعذيبى؟

السيارة تتوقف. شعرت بحركة التوقف. الباب يفتح. لم أر الشخص الذى نادانى:

- اهبط!

فكرت: ربما هذه خدعة للبدء فى تعذيبى. ترددت فى الهبوط. اسمع النداء مرة ثانية:

- اهبط، أقل لك!

- أهبط مرتجفا . حانيا رأسى. دوخة تفقدنى توازنى. أشعرنى ثقيلاً هواء ليل بارد يصفعنى. دفعت إلى الأمام. كانت السيارة قد تراجعت قليلا إلى الوراء. أكاد أسقط. اسمع باب مؤخرة السيارة يصفق. الساحة كبيرة، خالية، يمتزج فيها

البؤس بالثراء. أين تقع هذه المدينة؟ لاشك تقع فى الشمال. لماذا نقلونى إلى مدينة أخرى؟ هل هم يريدون أن يخلقوا مشكلاً جديدا هنا؟ من الظلام إلى الظلام. فى الظلام قبضوا علىّ وفى الظلام سرحونى. صوت من خلف. يقول الرجل لرفيقته:

–هذه الليلة ستكون ليلتك. ستعرفين هذه الليلة من هو أنا.

– أفعل ما تريده منى. لكنك مخطىء. لقد شربنا فقط لكنى لم أسمح لنفسى أن أنام معه.

– هيه! قولى هذا لمغفل آخر.

تخطيانى. أصواتهما تخف شيئاً فشيئا. يترنحان. يتوقفان. يتأملان بعضهما يسحبها إليه. يضغط عليها. يحاول أن يطيحها. تتألم: آى آى آى...!

تتوسل إليه:

– أرجوك، ليس هنا!

– إنك تستحقين هذا هنا. تستحقين أكثر من هذا هنا.

– الناس، الناس يرون. لا تفعل معى هذا هنا، أرجوك.

– لا يهمنى الناس. سأفعل معك هذا هنا.

يطيحها. يفك حزامه.

– أرجوك. افعل ما تريده منى، لكن ليس هنا.

ينهض. يترنح. يتركها. تنهض. تترنح. تتبعه. ما من شىء

ممكن خلقه إلا وهو موجود. قد يكون هذا صحيحا، لكن أليس هذا سخفا؟

أمشى بحذر وبطء. شخص آخر يقترب منى. يتوقف. يتواجه معى. ينحنى على صفيحة فى الطريق. يكلمها:

- مالك؟ أنت فارغة الآن. أليس كذلك؟ من ثقبك؟ من أفرغك؟ أنت لا تريدين أن تقولى الحقيقة، لكن الناس يعرفون. ثقبوك وتركوك هنا. قولى لى يا عزيزتى. يا صفيحتى العزيزة. هجروك، أليس كذلك؟

ينظر إلى باحداد. يخنقنى فى الهواء. يخنقنى أو يخنق شخصا آخر. من بعيد رأيته يلتفت مرة واحدة إلى ثم يختفى.

على جدار مدخل الزقاق صورة كبيرة. صورة فنان كما هى العادة: ممثل أو مغن، لكن كلا. ما هذا؟ صورتى أنا، لماذا؟ إلى هذا الحد؟ تتضح الصورة أكثر فأكثر. لا أدرى كيف أخذت لى هذه (الصورة) بمثل هذا الوضوح، وهذه الدقة دون أن أفطن. عماروش التلمسانى. ممنوع التعامل مع هذاالشخص فى جميع الظروف. وكل من يخالف هذا التحذير سيعاقب بموجب القانون الصادر فى حالة التعامل معه.

أهذا هو التعذيب إذن؟ أهذا ما فكروا فيه؟ بعض الصور الأخرى، عبر الزقاق، ممزقة حواشيها. صورة ملصقة على جدار

ممزقة العينين. لا شك أن الشخص الذى شوه هذه الصورة يتمنى لو أنهم يفقأون لى عينى. من المحتمل أن يفعلوا إذا شاؤوا. قد يفعلون أكثر من هذا. من يستطيع أن يمنعهم.

نسخ من صورتى ملصقة فى كل مكان:فى المتاجر، فى المقاهى، فى المطاعم، فى الداخل والخارج. قد يكون هذا التشهير موجودا فى كل المدن الأخرى.

وصلت إلى ساحة المقاهى. تبدو هذه الساحة الصغيرة أكثر من الساحة الكبرى الأخرى. صورتى على الواجهات وعلى الجدران. رأيت بعضهم يشيرون إلىّ بنظراتهم وأيديهم. أحس بخواء فى كل جسمى. جلست على مقعد فى رحبة مقهى سنترال النادل نائم. خرج النادل الآخر من وراء الحاجز وأيقظ النادل الانائم. قال لى النادل من الخلف فاركا عينيه:

– من فضلك، انهض من هنا!

تطلعت إليه. أضاف:

– أنت تعرف جيدا لماذا.

شكرته بإشارة من رأسى ومضيت. الناس إذن ليسوا حاقدين علىّ. فقط هم مجبرون على ألا يتعاملوا معى. إن أية محاولة للجلوس فى مقهى أخرى ستكون مهزلة. سيكون الرفض نفسه. ربما سيعاملنى بعضهم باحتقار دون أن أستطيع الدفاع

عن نفسى.

فى مدخل الدرب، الذى دخلته، رأيت مطعما صغيرا. فى الواجهة سمك مقلى، دجاج مشوى محمر، شرائح لحم نئ وبيض مسلوق وتوابل. توقفت أمام الواجهة. رجال ونساء يدخنون ويشربون. أمامهم الأطباق الفارغة وفضلات الطعام. يضحكون ويغزلون ويتنكتون. ينهض خادم المطعم الناعس بسرعة. يقترب ببطء من الباب. لم يكلمنى. ينظر إلىّ بفضول من قدمى إلى رأسى. عيناه تقولان:

هيا! امش! ابتعد من قدام مطعمى.

أمشى إلى الأمام. أصوات ضاحكة من خلفى. رأيت خمسة أو ستة رؤوس تطل علىّ دون أن يتخطى أحدهم عتبة الباب. هل أظل أضرب رأسى مع الجدار حتى أسقط؟ سيكون عذابا أختاره لنفسى، لكن كيف أكون متأكدا من أن هذا الفعل هو أحسن حل لمشكلتى؟ ألن يكون هناك حل آخر؟

أخرج من درب وأدخل فى درب. صعدت الدرجات بتعب. جميلة هذه السطيحة، رائع منظر البحر من هنا. الماء يلمع تحت أضواء البواخر مثل السراب. جلست على المقعد الجرانيتى. كيف سأواجه مصيرى؟ هل هذا هو نوع التعذيب الوحيد؟ إلى متى سيستمر؟ تمددت على المقعد. تعبى يخف. قد يكون هذا

الحكم مجرد تمثيلية هزلية بطلها أنا ومتفرجوها أهل هذه المدينة. ربما تكون قضيتي هي بداية تطبيق قانون جديد. كل شيء ممكن ما دام هناك أناس يريدون أن يتسلوا على حساب الآخرين. قد يكون هذا الحكم أيضاً عقابا وتسلية في آن واحد. كل شيء محتمل.

غفوت. أحسست بيد تخرج محفظتي من جيب سترتي الداخلي. أفقت من حلمي الملون. قال الأول:

– إلزم مكانك. لن نفعل لك شيئاً يؤذيك.

أضاف الثاني:

– أنت تعرف جيدا أنك لن تحتاج أكثر إلى النقود بعد الآن. لن تحتاج حتى إلى نفسك.

لم أتكلم. قال الأول:

– يمكنك أن تعود إلى النوم إذا شئت. ما أظن أن أحدا سيؤذيك.

ابتعدا. منظرهما أنيق. ينزلان الدرج ضاحكين. يختفيان كأنهما ينزلان في بئر. يعلمون كل شيء إذن عن قضيتي ومصيري. يعلمون عني أكثر مما أعلمه عن نفسي. أمن أجل كتابة مقال عن التسول يحدث كل هذا؟ كنت قد نسيت محفظة نقودي. عجيب. لماذا لم يأخذها مني الذين سجنوني أو الذين

سرحونى؟ أعتقد أن قضيتى أخطر مما أتصور. أحدهم كان يسعل باستمرار فى وجهى. كنت خائفا. هدأت حين لم يقس أحدهم علىّ. عجيب. حتى هؤلاء المشردون يعاملوننى بلطف. مهذبون ومرحون.

انصرفوا تباعا. كل واحد يفحص ما سلبنى. تركونى عاريا تماما. لا شك أنهم يعلمون عنى أيضاً كل شىء. يعلمون أنى لن أحتاج حتى إلى ستر عريي. لا ألومهم إذا كنت حقيقة لن أحتاج حتى إلى نفسى. معهم الحق إذا كانوا يحتاجون إلى ما لم أعد أحتاج إليه أنا.

بدأت أرتعش. ليس قضيتى مهزلة إذن لتسلية الناس. ثلاثة أشخاص: الأول يحمل سطلا، الثانى قماشا أبيض والثالث علبة صغيرة حمراء. جلسوا على المقعد الآخر يسارا، ينظرون فى الفراغ بلا مبالاة. يدخنون. تحركت. نظروا إلى. نظراتهم قلقة. قال لى أحدهم:

– اسمع: إذا شئت يمكن أن نبدأ معك قبل أن تشرق الشمس.

قال الثانى:

– سيكون نهارا حارا مثل كل هذه الأيام. أعتقد أن الأيام المقبلة ستكون أكثر حرارة.

قال الثالث:

– لن يستطيع أحد أن يشفق عليك. إنهم قد يتعاطفون معك من بعيد، لكن لن يستطيع أحد أن يساعدك فى شىء فى مثل هذه الظروف.

– يوم، يومان، ثلاثة ثم تسقط. ما أظن أنك تستطيع أن تتحمل أكثر. تصور منظرك وأنت عار جالس هنا أو تنتقل من مكان إلى آخر. إن أحدا لن يؤذيك، لكنك ستبدو للناس كحيوان غريب موضوع فى قفص. أليس من الأحسن أن نبدأ معك فى تنفيذ الحكم الآن؟ إذا بدأنا الآن معك ستخفف عن نفسك عذابك وتوفر علينا الوقت فى هذا العمل الممل.

سألت الأول الذى كان يتكلم:

– أنا لا أفهم بعد لماذا يصدرون على مثل هذا العقاب.

قال:

– لقد سخرت من الناس أكثر من اللازم.

دهشت. قلت له:

– لا أعتقد أننى سخرت من الناس أكثر من اللازم. لقد كتبت عن ظاهرة موجودة.

– هذا فى نظرك. لم يسبق لأحد من الناس أن سخر من الناس مثلك.

قال الاثنان الآخران:

- صحيح، لقد سخرت من الناس أكثر من اللازم. ليس هناك من يحق له جهل القانون، خاصة القانون الجديد.

- نعم. الجهل بالقانون لا يعفى من العقاب. إن هذا النص، رغم أنه قديم، مازال جاريا به العمل.

- أنت محظوظ. يبدو أنهم تساهلوا معك.

قلت:

- رغم هذا أنا لا أستحق مثل هذا العقاب.

- كيف لا تستحق مثل هذا العقاب وأنت تعلم أن الذباب مات منذ حوالى خمسة وعشرين عاما.

دهشت:

- الذباب؟

- نعم، الذباب انقرض منذ ربع قرن وتكتب أنت اليوم عن نشاطه الجنسى.

قلت بانفعال:

- لكن لا، أنا لم أكتب عن النشاط الجنسى عند الذباب. كتبت مقالا عن التسول.

- ليتك كتبت عن التسول. من المحتمل أنهم ما كانوا سيدينونك، لأنك على الأقل، ستكون قد كتبت عن شيء موجود،

لكن أن تكتب عن ظاهرة غير موجودة فهذه جريمة كبرى.

– أؤكد لكم أننى لم أكتب شيئا عن الذباب.

– اسمع، لا تحاول أن تراوغ معنا، نحن لا يهمنا أن تكتب عن الذباب أو المتسولين أو النساء البوالات فى الشارع، إننا فقط نحاول أن نفهمك مشكلتك الخطيرة:

قلت :

– لابد أن هناك خطأ فى قضيتى.

– هذا من سوء حظك، الحكم قد صدر.

بعد لحظة صمت قلت لهم:

– أنتم مكلفون إذن بتنفيذ العقاب.

– كلا. ليس نحن. إننا فقط مكلفون بحراستك وتخفيف عذابك ثم نسلمك إلى الذين سينفذون فيك العقاب.

– أين؟

– تعال معنا .

نهضوا . حملوا أشياءهم ومشيت أمامهم. قال أحدهم للآخر:

– إيه، إنك نسيت الصابونة.

تبين لى أنها صابونة الكافور. لقد حملوا معهم كل معدات الموت. أعجب أن يكونوا مازالوا يحافظون على هذه التقاليد فى دفن ميت بذنب ما .

مررنا عبر الساحة الصغيرة. بدت لى قذرة وكئيبة هذه المرة، تبعنا أشخاص خرجوا من الثقوب الكبيرة كالفئران. توقف عاملان ينظفان مجرى المياه القذرة. شممت رائحة كريهة. لم أحبس تنفسى كما كنت أفعل فى السابق. ماذا يهم الآن أن تكون الرائحة طيبة أو كريهة!

عندما وصلنا إلى الساحة الكبيرة خرج طابور آخر من الفئران. يتحدثون، يصرخون، يضحكون. انزلقت فى قشرة فواكه. سقطت إلى الوراء. تعالت ضحكات ساخرة. ساعدنى اثنان من مرافقى على الوقوف سألنى أحدهما:

– هل أنت بخير؟

تمتمت:

– لا بأس، أستطيع المضى فى المشى.

القرود. إنهم مازالوا يأكلون الفواكه مثل القرود، يتغوطون فى الشوارع مثل الكلاب، مع ذلك يقولون بأن الذباب انقرض.

مشيت أمامهم أعرج. رجلى اليسرى تؤلمنى، لكن لم يعد يهم أى شىء. وصلت إلى سمعى كلمات مثل: دفن، ضحية، عقاب، قانون جديد..

مشينا حوالى نصف ساعة وسط ظلمة خضراء. لم يبق من الموكب إلا أربعة أو خمسة كانوا متخلفين عنا فى السير.

حين اقتربنا من الحقل الأبيض كان هؤلاء قد اختفوا. قال لى حامل السطل:

– هانحن قد وصلنا.

كان باب عالم الصمت الأبدى مفتوحا. عندما دخلت صفعنى هواء ليل آخر، معطر وبارد، فتح باب منزل صغير وظهر شخصان قويان، عملاقان وثيابهما سوداء.

طنجة 1972

بشير حيا وميتا



أخرج حفنة من مسحوق التبغ وبدأ يلفها فى قصاصة ورقة يا نصيب. سأل بدرى:

– لماذا فى ورقة يانصيب بالذات؟

قال بابا جيلالى: هذه عادته منذ فقد ثروته. إنه يتخيل ورقة اليانصيب الخاسرة كجنية انجليزى، دولار، مائة بسيطة أو ألف فرنك. فى شبابه باع ضمن ميراثه قطعة أرض للقنصلية الانجليزية. إن المقبرة المقفلة اليوم طرف من الأرض التى باعها. اتهمه الناس بالكفر: «بعت أرض أجدادك يا بشير!» هكذا أخذوا يزعجونه. «أنا بعتهم أمواتا، أما أنتم فإنكم ستبيعونهم أحياء» هكذا يجيبهم هو. حصل على الحماية الانجليزية. حجز غرفة فى فندق سيسيل حتى يتاح له التعرف على الأجانب العابرين. اشترى جوادا ومسدسا. أعطيت له رخصة التسلح التى لا تعطى إلا لذوى الجنسية الأجنبية. صار يهدد المزعجين باطلاق الرصاص عليهم، لكن من يعرف كيف يعامله يمنحه بعض المال. صاروا يخشون وضعه الجديد. يتقبلون إهاناته وتصرفاته الغريبة دون احتجاج. فى الليل يذهب إلى كباريه «امبريال» الذى صار اليوم متجرا لبيع الثياب،

تستقبله سنيورا روسيتا بخوف واحترام. تقول له برقة:

- سنيور بشير! حاول أن تعاملها برفق هذه الليلة. إنها فتاة لطيفة ووحيدة فى هذا البلد. أفضل فتاة أملكها لو تعرف. إن الظروف هى التى دفعتها لتعيش هذا النوع من الحياة القاسية.

يقهقه بشير ساخرا منها للحظة ثم يأمرها بصخب:

- أين هى؟ أين هى فتاتك الصغيرة السيفيانة؟

تأتى سوسانا متبرمة، خجولة، خائفة. يجذبها إليه. يعانقها بوحشية. لا يستطيع أحد من الرواد أن يحتج أمامه. يقولون عنه: «إنه مجنون. مجنون ووحش!» يأخذها إلى حجرة الحب. يطلب أغلى أنواع الخمر.

- أليس هناك يا سنيورا روسيتا أغلى ثمنا من هذا الشىء؟

- لا يا سنيور بشير. إن هذا النوع هو أغلى أنواع الشراب عندنا.

قلّما يغادر سوسانا من غير أن يتركها تنتحب. تعودت على سلوكه الوحشى وشذوذه الجنسى، فلم تعد تشكو لصاحبة المقصف. حتى أطفال السوق الداخلى أصبحوا يعرفون من هو بشير، فى النهار يأتى إلى السوق الداخلى. يسلم زمام جواده إلى أحد المتسابقين على خدمته. يذهب إلى مقهى «الرقاصة» ليسلم على أصدقاء أبيه وأجداد عائلته العريقة فى طنجة.

- هل يشكو أحدكم من شيء؟

يتطوع أحدهم للإجابة:

- لا. إننا والحمد لله بخير. أدام الله نعمته علينا وعليك.

يدخن معهم قليلا من الكيف. يفاخر بأجداده المدفونين فى طنجة. يتبادل معهم شتم الوافدين على المدينة، ثم يعود إلى ساحة السوق الداخلى. يستعرض نفسه بابتهاج للحظات فى وسط الساحة. يدخل قهوة سنترال. يتكلم بصخب:

- لم يعد لهذه المدينة جمرك. إنها مثل «فندق» الحمير. مدينتنا تشوهها كل يوم وجوه لا نعرف من أين تجئ إلينا.

يتأمل لحظة فى الوجوه الجديدة. يجلس وحيدا دون أن يسمح لأحد أن يجلس إلى جانبه. يخرج جنيها انكليزيا، أو دولارا، أو مائة بسيطة، أو ألف فرنك، يضع الورقة المالية على الطاولة، يتمهل لحظة ريثما تنتبه إليها العيون الجديدة. يخرج كيس التبغ. يلف سيجارته ببطء واختيال فى الورقة المالية. تتمطط العيون. كل العيون: القديمة والجديدة. أحيانا يمر أحدهم قدامه ويقول:

- يحيا بشير!

يقهقه بشير كامبراطور رومانى يلهو. قد يقول للنادل بلهجة آمرة: «أعطه شيئا يشربه». يدخن سيجارته الضخمة ذات

الدخان الكثيف. إذا اقترب منه متسول يعطيه قطعة نقدية صغيرة بكبرياء. غالبا ما يتأملها ويطيرها فى الهواء ثم يتلقفها قبل أن يعطيها للمتسول. فى المساء يتجول بجواده عبر شاطئ البحر الخالى. يمارس ألعابا فروسية مجنونة. ذات يوم شرب كثيرا فسقط من على جواده. لم يتشجع أحد أن يقترب منه. ظل هناك الليل كله يتألم من رضوضه والجواد يصهل حوله. قبيل الغروب يخلع ثيابه ويسبح بعيدا وجواده يتنظره على الشاطئ. يقول الذين عيونهم على البحر وآذانهم على الخبر: «لقد رآه محمد - وهو رجل تقى كما تعرفون - يقبل عشيقته عروس البحر التى تجئ إليه كل مساء من أعماق البحر». «أبوه أيضا - رحمه الله - تزوج جنية البحر».

هذا ما يعرفه عنه الذين يعرفون هذه المدينة. استمر فى رفاهيته حتى قبيل الحرب الأهلية الاسبانية. ذات ليلة رأوه نائما على عتبة متجر (جران باريس). أدرك الذين يعرفونه أن بشير أفلس.

حدثت ضجة صغيرة حول بشير. توقف بابا جيلالى عن الحديث. رأيا شابا وقحا يحجب بظله عمدا الشمس عن بشير المقرفص على الأرض. أخذ يدمدم ويلوح بيديه، لكن الشاب عنيد. يضحك ويردد بصوت عال:

- آه! يا بائع الأموات. يا آكل بقول المقبرة. يا من يشتهى الأولاد الكبار والصغار! يا حامى القطط وكاره البشر! يا آكل الدجاج الميت!

ثار بدرى، لكن بابا جيلالى أمسك به:

- أجلس مكانك! لا تتدخل فيما لا يعنيك.

- لكن هذه إهانة.

بارتماء مجنون أحاط بشير الساقين بذراعيه. زعق الشاب ووقع. يعض بشير بجنون بطة ساق الشاب المزغبة. تشكلت حلقة من العابرين. وشىء من العنف انتشلوا الشاب من يدى بشير.

- هل آلمك؟

لم يجب الشاب. بدا عليه الخجل.

- أرعبك، أليس كذلك؟

قهقه بشير بهستيرية. وجهه مثل عجوز صينى، فمه كفرج ينفتح، عيناه مجعدتان غامقتان. هدأت الحركة حول بشير. دموع الانتصار تنفرط من عينيه الصغيرتين المدورتين كعينى بومة. يضحك كسمكة تتنفس. قال بدرى:

- وبعد يا بابا جيلالى.

- تعود الذهاب إلى المقبرة كل يوم. يجمع منها البقول

ويطبخها مع الطعام على رمل الشاطئ في الليالي التي تذكره بأيام غناه. أخذ يعتقد أنه ينتقم من البشر أحياء وأمواتا حين يأكل بقولهم. قال لأحد مغضبيه:

- إني سأنتظرك هناك في المقبرة. سآكل بقولك بدون طبخ.

صمت للحظة ثم أضاف:

- هذا هو بشير. فقد معنى الزمان والمكان. من المقبرة إلى الشاطئ ومن الشاطئ إلى السوق الداخلي.

* * *

اندفع بدري مع المسرعين نحو المقبرة. سمع أحدهم يلح:

- اطلوب الشرطة. لا تتركوه يذهب. سيعود لينبش القبور.

سأل بدري شابا عند الباب:

- ما الذي يحدث هنا؟

- شيخ اسمه بشير يريد أن يجعل من المقبرة مدفنا لحيوانات ميتة.

سأل أحدهم الشاب الذي يشرح لهم بحماس كل ما يعرفه عن بشير:

- أهذه هي أول مرة يريد أن يدفن فيها أحد قططه؟

– من يدرى؟ ربما دفن قبل اليوم حيوانات أخرى، لكن ها هو اليوم يريد أن يدفن قطة العفن.

رأى بدرى بشير جالسا على ضريح: القط عند قدميه، الحفرة لم تتم بعد وخشبة يبدو أنه استعملها للحفر. بشير صامت. ينظر إلى الجمع بتحد وإلى الجثة الصغيرة المرقطة باطمئنان. بعد لحظة نهض وأدار لهم ظهره. أخرج عضوه وبدأ يبول على قبر.

– ايه! ماذا تفعل يا بشير؟

دمدم الناس فيما بينهم ثم ساد صمت.

– هل نمنعه؟

– لا. أتركوه يفعل ما يشاء الآن. سنكون شاهدين فقط على ما يفعله.

– إنه مجنون. لا ينبغى أن نلوم إنسانا مجنونا مثله.

– أعوذ بالله من هذا البشر.

– إن الله يخلق ما يشاء.

– اللهم اجعل عاقبتنا بخير.

– نعم، اللهم اجعل آخرنا أحسن من أولنا.

– أعوذ بالله من شر ما خلق.

– والحارس، أين هو؟

- هذه مقبرة لم يعد بها حارس.

- لابد أنه دفن هنا كثيرا من القطط الأخرى.

- ربما. سمعت عنه أشياء. لم أصدق حتى وجدتنى الآن أرى بنفسى ما أرى.

- الناس الذين من جيله يقولون بأن أرض المقبرة ورثها عن أجداده وباعها.

قطر بشير عضوه. جلس على حافة الضريح المبلط وهو يزرر فتحة سرواله.

- أعجب لهدوئه الكئيب. يتصرف كما لو أنه لم يفعل أى شىء يخجل.

- ألا ترى أنه مجنون؟ من هو أكثر حرية من مجنون عندما يجد الفرصة ليتصرف كيفما يشاء؟

- عجيب هو هدوء المجانين!

أخرج بشير ورقة يانصيب مدعوكة. بدأ يلف سيجارته الغليظة.

- سيضطرّ إلى أن يخرا على مرأى منا إذا ظللنا نحاصره بهذا الشكل. أشعل سيجارته.

- لكأنه لا يرانا. أنظر! إنه أيضا يدخن.

- ما الفرق عندما يموت إنسان أو حيوان؟ هذا ما يريد أن

يفهمنا إياه.

- معه الحق. ماذا يهم إذا دفن قط إلى جانب إنسان؟

- لا شيء. لكن الناس لم يعتادوا على هذه العادة.

- ها هو بشير يعوّدنا.

- يخلق الله ما يشاء.

- أعوذ بالله من شر ما خلق.

بدأت تسقط قطرات من المطر. بعضهم ينسحبون. قال أحدهم:

- هيا بنا. ما لنا ولإنسان يريد أن يدفن قطا إلى جانب إنسان. كل واحد ومصيره.

- معك الحق. كل واحد يدفن أمه كيفما يشاء.

- اللى قطع شى شطبة يجرها[1].

هرب الناس. المطر يسقط الآن بغزارة. ظل بشير كتمثال على الضريح. انتقل بدرى إلى تحت شجرة الصفصاف ليرقب كيف سينهى بشير دفن القط. خلت المقبرة من الناس. تكونت ربوة صغيرة فى المكان الذى دفن فيه القط. راح يسويها بيديه. الأمطار تتساقط بغزارة، لكن بشيرا بدا أنه يقهر كل شىء.

* * *

---

[1]) من قطع غصنا فليجره

يوم شمسى. يستيقظون فى الشوارع كما لو أنهم ناموا فترة الشتاء كله. أسراب السنونو فى السماء تؤكد لهم صحو هذا اليوم المعبود. يفركون أنفسهم: الخفافيش خارج الكهف. يتحدثون بمرح. يشيرون إلى الشمس: مثولوجية الذاكرة تتثاءب فى عقولهم. يصفون هذا اليوم كما لو أنهم لم يحيوا مثله أبدا. ينظرون إلى وجوه النساء، صدورهن، مؤخراتهن خاصة الممتلئات منهن، ثم يثبتون نظرهم جيدا على استدارة السروال التحتانى والمشد، من خلال تنانيرهن الشفافة. هن ينظرن بسرعة شمولية، غالبا بخجل، لكن من الغريب إنهن يستعدن فى أحاديثهن حتى الزر المهمل وخيطا أبيض فوق سترة سوداء. كانت قدقالت لى إحداهن:

« أنتم الرجال لا يمكن أن تخرجوا إلى الشارع دون أن نرى فيكم ما يلفت أنظارنا».

سريعة خطواتهم. يتوقفون على عجل. يستأنفون مشيتهم كأنهم نسوا شيئا يخشون أن ينفجر أو يسرق. كأنهم مصابون بالاسهال. مستعدون أن يغضبوا فى وجه من يعكر عليهم صفو هذا اليوم.

وجد بدرى نفسه يتمشى بلا هدف فى السوق الكبير. لا امرأة له ولا أطفال، مع ذلك يود لو أنه يجد نفسه إلى جانب

امرأة رزينة وأطفال هادئين. مرت أمامه شابة قوية وجذابة. يا لزغب العنزة. سمعت أن المزغبات شهوانيات، لكنى لا أحب امرأة لها ساقا عنزة. يكفينى زغبى. ألا يكفى شعرهن الخفى. الكث كالحلفاء؟ ملساء كأفعى أو كسمكة، هكذا أريدها.

صدمه أحدهم من الخلف:

- أعتذر، إنى...

هزّ بدرى رأسه. بدأ آخرون يتصادمون. رآهم بدرى يتجهون نحو جادة فندق الشجرة. أفلتت أذن قفة من يد امرأة اسبانية، حبلى. أحب الحاملات. إنهن يوحين بالاحترام. تدحرج نصف محتوى القفة. طماطم. بطاطس، بيض، هليون، شمندر، محار، تفاح. صاحت المرأة فى وجه الشاب المسرع:

- إيه أنت! أأعمى أنت؟ ما أحمقهم! إذ جنّ أحدهم يصابون بالعدوى.

لم يلتفت إليها الشاب. رآها بدرى تنحنى بصعوبة لتلتقط حبة الطماطم كفّت عن التدحرج. فكر ضاحكا مع نفسه: البطاطس تسبق الطماطم لأنها لا تنعطب.

اندفع بدرى مع الآخرين. لابد أن الحدث هام. رأى جمهرة هناك: تدافع، دمدمات، أسئلة، تحركات، احتكاك الشبان بخلفيات الشابات. رأى بدرى جسدا مغطى إلى النصف بقطعة

من الخيش وإلى جانبه دجاجة ميتة لا أثر للدم حول عنقها.
يسأل:

- من مات؟

- شيخ اسمه بشير. رأوه يترنح ويسقط.

فكر بدرى: مات أخيرا موته هو. ليس من أجل أحد. ربما هكذا سيقولون عنه. إن أسفهم لا يثار إلا عن من يموت من أجلهم. ما يغيظنى هو أن الإنسان مضطر أن يحتك بهم بالرغم منه ومنهم.

- ما أسعده! مات دون أن يتألم.

- عاش وحيدا. لا بد أنه تألم كثيرا.

- وتلك الدجاجة الميتة؟

- لابد أنه التقطها ليأكلها. يقولون بأنه يطبخ حيوانات ميتة مع بقول الأموات.

- مسكين!

- إنه يدفن ما لا يؤكل، ويأكل كل ما يؤكل حيا أو ميتا.

- هل له أحد من عائلته؟

- من المحتمل، لكن ماذا يهم الآن العائلة؟ كل شيء ينتهى هنا. منذ اللحظة التى سقط فيها لم يعد يخص أحدا حتى نفسه.

- لابد مات بالسكتة القلبية.

– التشريح سيكشف عن ذلك.

– ربما الطعام الردىء الذى يأكله قد سممه.

– حتى هذا أيضا لا يهم الآن. إنه مات. «إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

– نعم. أينما كنتم يدرككم الموت.

– هل مات حقيقة؟

– نعم، مات.

– بماذا مات؟

– لا أحد يعرف. مات وكفى.

– مات كأحد الحيوانات التى دفنها فى المقبرة. كتلك الدجاجة التى لم يأكلها بعد.

– لكن لماذا نتكلم عنه هكذا؟

– صحيح، كلنا سنموت. احترموا الموت.

ظهر شرطيان. انفسح لهما الطريق. تكلف أحدهما بابعاد الجمهور. اتجه الآخر نحو الجثة. انحنى على الكتلة. رفع الغطاء عند الرأس، تأمله للحظة. أزاح الغطاء. أمسك معصم بشير فى يده. صاح:

– أنه حىّ. مازال حيا.

– لم يزل حيا.

تحركت الجثة.

- لم يمت بعد.

- حىّ!

- حىّ؟

- حىّ؟

- نعم، إنه حىّ. ليس ميتا. حسبوه ميتا.

- عجيب!

- نعم، لم يزل حيا. سيعيش من جديد بعد أن مات.

- إنه محظوظ.

- ارجعوا إلى الوراء. الرجل مازال حيا. أتسمعون أم لا؟ إنه حى لم يمت.

- غريب! إنه حى.

أزاح الشرطى قطعة الخيش جانبا. اقترب الشرطى الآخر من زميله. صغرت الحلقة حول الشرطيين. تكلما:

- لابد أغمى عليه فقط.

- حسبوه ميتا وهو حى.

- إلى الوراء يا ناس. الرجل ما يزال يحيا. إنه حى لم يمت. أتسمعون؟

- إنهم لا يصدقون.

- إلى الوراء. تفرقوا!

- أخطأوا جس النبض.

اندهاش ولغط. انتظار قيام الميت. بان على بعضهم استعداد للفرار. الرعب يضخم الدهشة على وجوههم.

- هاتوا الماء. ماذا تنتظرون؟

صاحت عجوز:

- المفتاح! المفتاح! ضعوا له مفتاحا فى يده.

- نعم. هاتوا مفتاحا وماء.

- لكن لا، لم يسقط بسبب نوبة الصرع.

- لكن لن يضره مفتاح فى يده. مفتاح فقط. ضعوا له مفتاحا فى يده. مفتاح فى اليد لا يضر.

أخذ الشرطيان بشير من ابطيه وفخذيه وأسندا ظهره إلى الجدار. تباعد الناس بخوف. دمدمات، تساؤلات، تدافع من خلف وأمام. جفناه مسبلان. فمه مزموم. يداه متدليتان.

- ها هو الماء.

أدنى الشرطى الكوب من الفم المزموم الرخو. أجفل بشير قليلا ثم شرب. فتح عينيه. حرك ذراعيه.

- لو أنهم وضعوا قطعة زجاج على فمه وأنفه لما أخطأوا.

- سيظل يرعب الناس إذا عاش.

- وإذا مات فقد مات من قبله الأنبياء.

- سينظرون إليه كشبح وهو يسير بينهم.

- لكنه عاش مثل الشبح بين الناس.

فكر بدرى: مجرد مروره أمامهم سيجعلهم يفكرون فى الموت يمشى فى جسد حى. ترى كيف يمكن أن يعيش إنسان مات فى وهم الناس؟ يا للأسطورة التى تمحو الحقيقة! ما الحقيقة؟ أهى أن يموت الإنسان وهو ليس ميتا بعد؟

وصلت سيارة الاسعاف. نزل رجلان. خاطب الشرطى بشير:

- سيأخذونك ليعالجوك.

حدق بشير فيهم باستسلام. ترك المسعفين ينهضانه من ابطيه. حدث لغط بين الجمهرة.

- ميت يقوم. هذا غريب!

- الناس حمقى. الرجل أغمى عليه فقط ومع ذلك يصرون على أنه قائم من الموت.

- أنظروا! دجاجته ما زالت هناك.

- لو أن دجاجته أيضا تقوم. ترى ماذا سيحدث؟

- سيغمى عليهم. سيفرون كالفئران. سيحمقون.

دفع الشرطى جثة الدجاجة بقدمه إلى جانب الافريز.

صعد الشرطى الآخر مع بشير، صاح الشرطى الذى ظل

هناك:

- والآن، هل تنتظرون أن يغمى على أحد آخر؟

نظروا إلى بعضهم باسمين. دمدمات، حركات، أقلعت سيارة الاسعاف. بدأوا يتحركون. كثيرون منهم بدا عليهم أنهم لا يصدقون.

طنجة 1967



القـــيء



تفوح روائح الموت من كل مكان. ينظرون إلى بعضهم بغرابة دون كلام. لا أحد يمشي مع أحد. الأشجار تعرى. الريح الخفيفة تكنس الأوراق الجافة. يتهالكون على عتبات المنازل والمقاعد العمومية. يفتشون عن أماكن تفوح منها رائحة العيش. يتقيأون. يهشون على الذباب. يمشون فوق القيء والصديد والجثث بلا مبالاة. يتحاشون الأجسام المحتضرة. بعضهم يسقطون على قيئهم ولا ينهضون المتاجر والمقاهي والمطاعم مقفلة.

يلهث. يلتفت خلفه. يترنح. يسقط. يغالب إعياءه. يسقط. تفلت خبزته من يديه. يحبو. يمسكها. يعضها بلهفة. يظهر الشخص الثاني. وجهه دام. يتواجهان في صمت. يغضبان. يتباعدان. يتهيجان. يندفعان إلى بعضهما. يتناطحان دون شد. أفلتت الخبزة السوداء من يد الأول. يدا كليهما متدليتان. يترنحان. ينزفان. يتواجهان. يتباعدان. يجمّعان قواهما. يتجعد وجهاهما. يهيجان. يتقاربان. يحاولان أن يتماسكا. يداهما مشلولتان. يتناطحان. يئنان. ينزفان. يئن الأول ويسقط فوق الأول. ينهض أرسلان من المقعد العمومي بهدوء وعياء. تنكسح رجله. يسقط

على ركبتيه ويديه. يرى الخبزة السوداء صغيرة من خلال ضباب عينيه. فتاة شقراء قادمة. تتهادى عياء. يحبو بسرعة. يستريح ويحبو بسرعة. عينه على الخبزة السوداء وعينه على الفتاة الشقراء. يحبو ويحبو بسرعة. تنزلق يداه فى بقعة دم وقىء. ينهض. يمسح يديه فى سرواله. يحرك رجله المتنمّلة فى الهواء. يترنح. يمشى بعرج. يمطط رجله فى الفراغ. مع كل خطوة تكبر الخبزة فى عينيه. يتقدمان نحو الخبزة. تصغر الخبزة فى عينيه. تارة تكبر ثم تصغر. يقفان. يتواجهان. ينظران إلى بعضهما. عيناها كبيرتان عميقتان حزينتان مسلولتان. يتأمل الجرو الميت على ذراعيهما. عيناه جاحظتان دامعتان صارختان. يتحرك. وجهه كله ينزف. يمد يديه الراعشتين نحو خبزته بيأس. يزحف قليلا قليلا. يداه النحيلتان المعروقتان ممدودتان إلى الأمام. تصغر الخبزة أكثر فى عينى أرسلان. ينحنى بسرعة. ينبض الدم فى رأسه بألم. الضباب الأحمر يتكاثف فى عينيه. يترنح. يتماسك. خاف أن يسقط ولا ينهض. على الخبزة لطخات دم طرى. يشطرها، يضع الشطر فى يدها. يئن الزاحف.. يضع أرسلان نصف الشطر فى يده، يشد الزاحف على الشطير بتشنج نصف الشطر فى يده. يشد الزاحف على الشطير بتشنج. يمضى أرسلان، تمضى الفتاة. يأكلان بنهم. يبتعدان

عن بعضهما. يعود إلى المقعد. يدير ظهره للمدينة. يتأمل الشروق والبحر وأزهار الحديقة. طفل ينتزع الشطير من يد الجثة. شخص يتقيأ من تحت ومن فوق. كلب يلتهم القيء الأصفر. يكف الشخص عن القيء. الكلب ينتظر مزيدا من القيء. ينكفيء الشخص على وجهه فاغر الفم. يهرب الكلب خائفا. الفتاة الشاحبة تنتحب. يتعاركان. يتعاضان. يخرج الأول سكينة. ينتزعها منه الثانى. يحاول أن يطعن الأول. يفقأ الأول عينى الثانى بأصبعه. يسترد سكينه. يصرخ الثانى مثل الحيوان. يشد على عينيه بكفيه. يسقط. يتقيأ دمه. يتمرغ. يحشرج. يمسكها الأول من شعرها الطويل الأشقر. تئن. يبوسها بعنف. تتراخى على صدره. يغمى عليها. شفتاها داميتان. يحاول أن يرفعها. يجرها من يديها. يستريح. فمه ينزف دما. يجرها ويستريح. تسقط فردة حذائها وهو يجرها. تسقط فردتها الثانية وهو يجرها. يتعرى نصفها الأسفل وهو يجرها. يتمزق ثوبها وهو يجرها. تدمى قدماها وساقاها وهو يجرها. يسقط إلى الوراء وينهض. يسقط وينهض. يسقط وينهض وهو يجرها. يتوجه بها نحو الحديقة المسيجة. يتأملهما أرسلان. هى تستريح مغمى عليها وهو يستريح لاهثا، تمتزج الرغبة فى ذهن أرسلان بالشروق والبحر، تمتزج بالأزهار وطيور

الصباح، تمتزج بطنين الذباب والخبز اليابس والبحر، تمتزج بالأزهار وطيور الصباح، تمتزج بطنين الذباب والخبز اليابس الأسود، تمتزج تلك الرغبة فى حواسه برائحة القىء والموت والصمت الطويل.

طنجة 1971

أشـجـار صلعاء



ضخم. منقاره معقوف. براثنه طويلة وحادة. أصلع. الشمس تحرق. أشجار هذه المنطقة. لم تعد تورق منذ زمان. ظلال فروعها قصيرة ورقيقة. لم يبق من بعضها إلا جذوعها. محروق أكثرها وبعضها خروم بالنار بالسوس. جثث بشرية تفشى فيها الانحلال، ملابس عسكرية، أحذية، خوذات، معدات حربية محطمة، قليلها سليم. كل ما هو مبعثر على امتداد المنطقة الشاسعة محطم أو محروق. الشمس تكوى. لا أثر لحياة إنسانية. كواسر تحلق هنا وهناك تجثم على الأشجار اليابسة أو فوق الجثث.

ضخم. منقارة معقوف. براثنه طويلة وحادة. أصلع. الشمس قوية. تحرك. تحركت. طار. يحلق فوقى. ظله يدنو منى. صارخا أستنجد وخابطا بيدى تحته. عاد ليجثم على فرع مجذوع. ألهث. اللعين! لا يلهث مثلى. يسخر منى. يستهلك قواى. ينومنى الآن بنظراته الشرسة. يستنز فنى كلما خبطت تحته. لقد أجبرنى على هذا الوضع. إننى شبيه بسلحفاة مقلوبة على ظهرها تحت هذه الشمس القاتلة. لاشك سيفقأ لى عينى ثم يمزق أحشائى.

السراب يتموج على مدى مرآى. حلقى متخشب. أبذل جهدا

قاسيا فى حركة البلع. أحس كأنما حلقى ينسلخ عندما أحاول أن أبلع ريقى. أخرجت قلم الرصاص من جيب قميصى. أقضمه وأمضغه بجهد بالغ. سائل ساخن ينبجس فى فمى كلما مضغت.

خزرت إليه بقساوة حتى لا أضعف. عضلات وجهى ترتعش. لا بد أنها تفضح ضآلتى وخوفى منه.اللعنة! ماذا سأفعل معه! تحرك، تحركت مثله. انفتح جناحاه الهائلان، مخالبة تنتصب وتنكمش. هاجمنى. تفلت الخشيبات الدامية التى لم أمضغها بعد. يخبط بأظافره القوية وأنا بأطرافى الخائرة صارخا بجنون. عاد إلى فرعه. حبات العرق تتكور من على جبينى ثم تستقر على رموش عينىّ الملتهبتين. هذه المرة أنظر إليه بعينى اليسرى ويداى ورجلاى تنزفان. يشحذ منقارة فى مخالبه وفى نتوءات الجذع. فى الجولة القادمة ربما سيغمض لى العين الأخرى. سيجثم على كما يجثم الآن على فرعه.

تحرك. صرخت. خبطت. تموضع على الفرع. حدقت فيه بجنون. يهزأ بى. تحرك. لم أتحرك. هذه المرة باغتنى. يغطينى ظله الخافق وأنا أصرخ بضعف. جناحاه كأنهما مروحة كبيرة تهوّينى. عاجز عن حماية عينى بيدى. بعد لحظة هدوء انقلبت على ظهرى وعيناى مغمضتان. بذلت كامل جهدى لأمسح دمها

الدافق على وجهى. أطبقت يدى على برغشة تخبط فوق جفنى العرقان. فتحت عينى على الشجرة. لم يعد هناك. أمزاق قميص قاتم اللون ترف فوق فرع.

لم أعد أستطيع أن أقوم بحركة البلع. رأسى يغلى. حاولت أن أستريح منكفئاً على وجهى. اختنقت وعدت إلى وضعى. كنت، من قبل، ارتاح دائما حين أستلقى على وجهى، لكننى الآن أجد هذا الوضع غير مريح. الأرض تختزن حرارة النهار طوال الليل. أحس نبضات قلبى تكاد تتوقف: بليم.. بلام... بليم.. بليم... بلام... بلام...

هل سأجف هنا كما تجف الخضر فى الصيف؟ جربت صوتى: ايه! ايه! واهن وغريب عنى. بعد هذا الانين، سال تحسن طفيف فى جسمى. لكن ربما لن أستطيع مرة أخرى أن أبذل هذا المجهود الفانى.

القوة السالبة

خطوات تزحف. فتحت عينى. أمسكت بندقيتى المسندة إلى الشجرة. صرنا نتضارب بحربتى البندقيتين. تلافى ضربتى. أصابتنى طعنته فى صميم أسفل بطنى. أطلقت بندقيتى. قبضت على الحربة المغروزة فى أوصالى. لم يكن غير ذلك الشىء فى يدى. شعرتنى مسحوبا بقوة إلى الوراء.الحبل الذى يشدنى من الابطين يتدلى من الشجرة. يسحب من بعيد، من مكان ما لم أستطع أن أتبينه. ربما يسحب من إحدى الأشجار القريبة من هذه التى صارت قدرى. رفعت رأسى إلى فروعها. شيئاً فشيئا أسحب مرفوعا. أحاول فك عقدة الأنشوطة فى ظهرى. ربطونى وأنا نائم. كف سحب الحبل. جسدى الآن مرفوع حوالى أربعة أذرع أو خمسة. أتأرجح كلما تحركت.

على مدى أقصى رؤيتى جسم إنسان فى مثل وضعى. أرجحت نفسى لافتا نظرى إلى جهات أخرى. أجسام مشنوقة من عنقها وأخرى مصلوبة من يديها أو رجليها وفى مثل وضعى أخريات. لست الوحيد إذن.

فى الليل صار فى فمى غراء. الصمت فى المنطقة مطلق. شميم الروائح كريه. السماء جميلة. أبدا ما تأملتها مثلما أتأملها

فى هذه الليلة القمراء. ربما لم أكن أستطيع رؤية غيرها. كم هى الأشياء التى لا تتجلى رائعة إلا حينما أتهالك متعبا أو مريضا! لكن وضعى الآن أكثر انحطاطا من كل تعب أو مرض.

– ماذا تفعل؟

– أطلق النار على ما فى السماء من قبح.

– لكن ما فى السماء جميل لا يموت.

– ما فى السماء أيضا يموت. الجميل والقبيح يموتان. الموت على الأرض وفى السماء.

– أقتل ما على الأرض قبل قتل ما فى السماء. إذا قتلت ما على الأرض فسهل عليك قتل ما فى السماء.

– كلا ثم كلا. إذا قتلت ما فى السماء فسيموت نصف ما على الأرض. قد يموت كل ما على الأرض.

نمت وحلمت. سروالى مبتل. ها رائحتى الصغرى تفوح. مرة أخرى أتأمل السماء كما لم أتأملها من قبل. أتأملها مثلما أتأمل سماء نفسى فى أيام المرض واليأس. الأشكال السحابية فى ضياء القمر تبدو كأنها حيوانات بلغت زمن القوة السالبة. فى مخيلتى امرأة مستلقية على صخرة تعريها الشمس وتغمرها أمواج باسيفيكية. ربيع «ايفران»، شواطىء «فيجى»، «تاهيتى»، «هاواى»، «سرى لانكا»، وكل مواسم «الأطلس» الموشوم.

أذيال الكلاب الصغيرة

كلب صغير يفترس ذيله بشراسه. صاحبته تبكيه: «ساتورنوس، كفاك يا صغيرى. ستلتهم نفسك كلها».

يهددها بتكشيرة مسعورة كلما حاولت أن تحاذيه. يدور على نفسه مفترسا ذيله. حزام عنقه يدور معه. يلتف حول جسمه. لم تستطع أن تمنعه. أوشك أن يلتهم نصف ذيله. لم يكف. هى تبكى وهو يشبع من التهام ذيله. جاء كلب ضخم. شريد، وحشى، نصفه حمار ونصفه كلب واحتضن الكلب الصغير الذى استسلم له بلذة. سيدته تنوح صارخة: «سيقتله. يغتصبه، يبعجه. سيفطس صغيرى».

يكشران معا كلما حاولت أن تقربهما. يتلذذان بخفقانهما. توقف شيخ عالم بطبائع الكلاب وأمراضها وقال لها:

– سيدتى، اطمئنى على كليبك. إن القدر رحيم بك إذ أرسل لك هذا الكلب المنقذ فى مثل هذه الأحوال. إنه طبيب. سيلحم له جرحه الخطير لو أنك تعلمين وتؤمنين. إن مرهمه السحرى سيشفيه. لعله أيضا سيلقحه ضد أمراض أخرى تخفى عنك.

قال هذا فكفت المرأة الحزينة عن الندب.

– إن كليبك قد بلغ سن البلوغ فلا تخشى عليه من شىء.

الكلبان يلهثان معا وهما يتأملانهما. يحسبهما من يراهما زوجين عاقلين. لسانهما الورديان يتدليان وينقبضان إذ يلعقان لعابهما وهما ينبضان، يسويان وضعهما أمام - خلف - أمام. تسارع خفقانهما ولهاثهما ثم هدأ وانسلا بلا ألم ولا دم خلافا لطبيعة الكلاب. وإذ رأت المرأة نبوءته علامة لطفت خاطرها المهموم استبشر محياها في وجه الشيخ العاقل الوقور والعلامة بحياة الكلاب. قال لها إذ رأى نفسها راضية:

- خذيه إلى منزلك ودثريه ما استطعت. لا تطعميه إلا ما تيسر وخفّ من طعام لذيذ مدة يومين أو ثلاثة وإلا فعدة من أيام أخر. خذيه وزمّليه. لقد نفث له في جسمه أجود المراهم وأقواها. أبشرك أنه سينمو له ذيل أفضل ممّا كان له وأجمل. أصدقيني القول.

قال الشيخ العليم بأسرار الكلاب هذا للمرأة التى طمأنها قوله الحكيم واختفى. وقبل أن تنصرف شاكرة مبتهلة أبصرت سيدة مقبلة أبكاها النحس مما أصابها تحمل كليبا شبيها بالذى لها عجيزته أدماها نزيف خطير. سألتها رحمة بها:

- ما أصابك يا سيدة؟

وإذ آنست المرأة المحزونة نية سائلتها قالت:

- مجنون هائم حزّ ذيله بموسى وهرب. لولا أنى أدركته لبتر

له أيضا أذنيه.

- ولماذا فعل له هذا؟

- إنه مجنون يسيح. يقطع ذيول الكلاب الصغيرة. إذا استطاع فإنه يحز لها حتى آذانها.

- لكن لماذا يفعل هذا لهذهِ المخلوقات المسكينة؟

- لا يمكنك أن تصدقى. إنه يصنع منها الشورباء أو يطبخها مع ما يستعطيه من خضر وحبوب وفضلات مما يعثر عليه فى القمامات.

سأنتهى هنا، فى هذه الأرض التى أقحلتها الويلات البشرية مثل كومة من البرسيم إذا هم لم ينقذونى. خوذتى مرمية تحتى على الأرض قربها بندقيتى. غامت عيناى. رأسى يمتلئ بضباب ليلى - أحمر. أحسست تمزقا فى حلقى عندما أجهدت نفسى لأبلع ريقى. شعرت بانسلاخات تماثلها فى داخلى.

الرأس الحليق

عندما أفاق فى الصباح، اغتسل وتأمل شعره الغزير مرات فى المرآه. إنه يحب شعره. سيأسف عليه. لن يستطيع أن يمشطه إلا بعد حوالى عامين. لبس ثيابه وخرج من شقته.

فى الطابق الثالث نبح عليه الكلب الضخم خلف الباب المقفل. فى الطابق الأول نبح عليه الكلب الصغير. قدام باب العمارة رأى رجلا يأكل النفايات من برميل الزبل. سحنته فاحمة، أسماله ممزقة، حافى القدمين. فى الرصيف المقابل كلب بائس يلعق فمه ناظرا إلى الرجل والبرميل. فتيات معمل النسيج أغثاهن آكل الزبل. احداهن تقىء لبنا متخثرا ونادل المقهى يصب الماء على القىء لاعنا مصائب الصباح. أخرى تنتحب، أخريات ينظرن من بعيد، يغالبن اشمئزازهن. كلهن يشفقن على آكل الزبل ويسترحمن الله على عباده المساكين والمجانين.

انتهى الرجل من أكل الزبل. لحس أصابعه ومسح يديه فى مؤخرته ثم ابتعد خطوات وأخذ يبول على جدار العمارة.

تناول فطوره فى مقهى الأطلس ثم قصد دكان الحلاقة. جلس على المقعد الدوار وقال لحلاقه:

- احلق لى كل شعرى بالموس.

سيسافر فى قطار الثالثة بعد الزوال. أمامه وقت كاف ليجمع فيه حاجياته ويسلم مفتاح شقته لصديق سيسكنها. سيغيب عن مدينته حوالى ثمانية عشر شهرا. قد يراها في احدى العطل وقد لا يراها أبدا. أخذ الحلاق يبلل له رأسه بماء دافئ وأغمض هو عينيه ليسترجع كوابيسه التى أنهكته ليلة أمس.

طنجة 1977

الشعراء



الجمهور ينتظر وصول موكب الشعراء. فوق رصيف الشارع الكبير منصة فوقها كتب على طاولة تحمل أرقام الشعراء وبرميل زبالة. الجمهور صامت. متزاحم. يتقوسون إلى الأمام وتتطاول أعناقهم ناظرين عبر امتداد الشارع. زحامهم يتكاثف. يلتحمون. يتماسكون فوق حافة الرصيف. يتهامسون.

يظهر موكب الشعراء. الحراس يحيطون بهم.

– ستة شعراء.

– سبعة.

– كلا، ثمانية. تسعة. إنهم تسعة شعراء.

عيون الجمهور في عيون الشعراء. عيون الشعراء في عيون الجمهور.

– أنظر، لحاهم مستطيلة وشعورهم غزيرة، منفوشة.

– لاشك كانوا محبوسين في مكان تدخله الشمس مقدار ما يرون والهواء مقدار ما يتنفسون.

لم يحدث من قبل أن كان هنا مثل هذا الجمهور. إن صمته أكثر إنسانية هذا اليوم. حتى خطوات الحراس والشعراء تسمع في وضوح. الجمهور يكاد لا يصدق ما يرى. الأطفال أيضا صامتون. أفواههم فاغرة إلى جانب ذويهم. طفلة بدأت تبكي إلى جانب امرأة. وضعت المرأة يدها على فم الطفلة تسكتها برجاء.

سترات االشعراء سوداء، مرقمة من الأمام والخلف. وأرقامهم كبيرة بيضاء. صعد أربعة حراس الدرجات الخشبية إلى المنصة يتبعهم موكب الشعراء وراءهم بقية الحراس. جعل الحراس يصطفون قبالة الجمهور. بعد لحظة صمت نادى رئيس الحراس على الشاعر رقم واحد.

– تقدم وارم كتبك في البرميل.

الشاعر لم يتحرك في مكانه. نادى مرة ثانية بصوت أعلى وثالثة بصوت أقوى. الشاعر رقم واحد ثابت في مكانه. نظر الحارس إلى الشاعر بوعيد. أشار إلى زبال الكتب. تقدم هذا وسحب كتابين ملصقة عليهما ورقة سوداء، مكتوب عليهما رقم واحد بلون أبيض. ورماهما باحتقار في برميل الزبل.

صوت رئيس الحراس يزداد غضبا كلما نادى على رقم شاعر. بصق زبال الكتب على كتاب قبل أن يرميه في البرميل. هاج الجمهور. بكى الأطفال. أصوات احتجاج. همس رئيس الحراس في أذن زبال الكتب. كل الشعراء رفضوا الصمت من جديد. عيون الشعراء في عيون الجمهور. عيون الجمهور في عيون الشعراء.

ومثلما صعدوا إلى المنصة هبطوا عائدين من حيث جاءوا.

طنجة 1973

التابوت



اعتاد كل مساء، الجلوس فى مقهاه المفضل، يضع علبة سجائره السوداء على الطاولة ويطلب، غالبا، قهوة بالحليب. السيجارة يدعكها نافضا غبار تبغها قبل أن يدخنها. ليس له أصدقاء فى هذه المدينة. أصدقاؤه القليلون يجيئون من مدينته أو يلتقى بهم فى مدينته فى نهاية أحد الأسابيع.

فى الأيام المعتدلة الطقس يجلس فى رحبة المقهى متأملا العابرين أو يتأمل نفسه. غرفة نومه طلاؤها بنى غامق، ستائرها سميكة سوداء، مسدلة ليل نهار، الغرفة الأخرى هى مرسومة: طلاؤها وردى غامق. ستائرها شفافة، لونها أزرق شاحب. عندما يدخل فى المساء يتناول كوب حليب دافئا أو شورباء، واضعا فيها حفنة من ثوم مسحوق. معظم أدوات مطبخه من الفخار والخشب. أثاث غرفة نومه بسيط عتيق. اشتراه من سوق المستعملات. مفرشه من صوف. يخلع حذاءه ويجلس فى الظلام على مضجعه الأرضى. يدخن مستمعا إلى أحد التسجيلات من الموسيقى الأسيوية الشعبية أو الكلاسيكية الأوروبية. فى منتصف الليل يمارس ضجعته النفسية: يدخل فى التابوت لابسا قميصا وسروالا، حافى القدمين، ثم يغلق غطاءه عليه. للتابوت ثقوب فى جانبيه وفى غطائه. ميت حى ولست حيا ميتا. هكذا

يقول. حين يقوم من مرقده يدخل مرسمه ليعمل.

توقف أمامه: هندامه مهمل، ملتح، ملامحه صارمة، نحيل. ركز عليه نظره ثم انحنى وضمه من ساعديه وباسه بقوة فى فمه. استقام وقال:

– منذ زمن طويل وأنا أفتش عنك فى أحلامى. لن نلتقى أبداً. هذا أكيد.

ودعه بنظرة عميقة ثم صار واحدا من العابرين. ظل لحظة مندهشا. ضحك بعض الجالسين فى رحبة المقهى. توقف آخرون باسمين محدقين فيه. سأله النادل:

– السيد ناضل، ماذا حدث لك معه؟

– لا أدرى.

– أهو يعرفك.

– لا أعرف.

– أمر غريب. مصيبة. لابد أنه مجنون. هذه المدينة صارت مليئة بالمجانين.

الجالسون يتهامسون ملتفتين إلى ناضل. النادل واقف أمامه. يغشاه دوار. الأشياء تغيم عيناه. غادر المقهى. انبهاره يخف مع مشيه البطىء.

اقترب منى وفاجأنى:

- هل تأتين معى؟

- ماذا تقول؟

- إذا شئت تعالى معى.

جد نحيل، ملامحه صارمة، هندامه نظيف، ينظر فى عينى بقوة. قال:

- منذ زمن طويل وأنا أفتش عنك. رغبتى قوية لكى تصحبينى. قد لا نلتقى أبداً. تعالى معى. إننى مشتاق إليك. سأبوح لك بسر قد يهمك أن تعرفيه.

- أمجنون أنت أم ماذا؟

- عندى لك سر عظيم.

- فتش عن مجنونة مثلك لتبوح لها بسرك العظيم.

ضحكت منه وتركته واقفا ملتفتة لأرى أهو يتعبنى.

استوقفت أخريات. ضحكن منى شاتمات. قرب البنك الاسبانى المغربى رأيتها هناك واقفة عند مدخل العمارة: شقراء، حزينة، شاحبة، شاردة، غير لحيمة. هذا هو القوام الذى يعجبنى. ثوبها غير لصيق على جسمها. أكره ذوات السراويل. تقدمت منها فكرت أن أمسكها من ساعديها بالقوة نفسها التى شدنى بها ذلك الشخص الغريب وأقبلها. قد لا تأتى إذا فعلت. سأكتفى بما قلته للأخريات.

- هل تأتين معى؟

- إلى أين؟

- إلى شقتى.

تركتنى أحمل قفتها الجميلة المحشوة بثيابها ومشت إلى جانبى.

عند باب العمارة تطلعت إلى الطوابق الستة قبل أن تدخل. فتحت لها باب المصعد وأعطيتها قفتها.

- اضغطى على رقم 3. أنا متعود على صعود الدرج.

تقدمتها وأضأت مصباح الممر. أشرت لها أن تدخل غرفة النوم المظلمة. بصيص من الضوء يتسرب إليها من الممر. جلست على المضجع الواطئ. أضأت الأباجور الصغير الأزرق.

- عندى بيرة، ويسكى وجين.

- نبيذ، إذا كان عندك.

- سأهبط لأشتريه من بقال الحى.

عندما خرج أثار انتباهى شىء مستطيل. تأملته لحظة. تغلبنى الفضول. نهضت. اقتربت منه بحذر تأملته مرة أخرى قبل أن ألمسه. أزحت القماش الأبيض ويدى راعشة، قفّ شعرى، ارتجف جسمى، ركضت نحو الباب لاهثة، فتحته،

أحسست بقوة وهمية تجذبنى إلى الخلف ترنحت غالبتُ سقوطى هبطت الدرج قافزة متعثرة انطفأ الضوء تصادمتُ مع الجدران تمسكت بالدرابزين انفتح باب شقة توقفت جامدة بانت شابة فى بؤرة مضيئة حييتها هزت لى رأسها أضاءت ردهة الطابق خف لهاثى هبطت ببطء وهى نازلة خلفى.

تقابلنا عند باب العمارة. فى يده طرد. مرت قدامنا الشابة.

– ماذا حدث؟ ألن تبقى؟

خرجت كلماتى مخنوقة:

– لا.. شكرا.. سأذهب.

أخرج ورقة خمسين درهما ودسها فى يدى. تطلعت إليه مسترجعة بعضا من اطمئنانى. كدت أبقى، لكن الرعب مازال يرجفنى. شكرته وابتعدت.

أطفأ الاباجور تاركا ضوء القمر. جلس يدخن ويشرب من زجاجة النبيذ التى اشتراها لها. أذان العشاء يسمع من بعيد. يحبه أكثر عند الفجر. يعمق وحدته كما يقول. ألقى نظرة على قفتها وعلى التابوت الذى سقط عنه الكفن.

حية أحب أن تموت وميتة أحب لو أنها مازالت حية. أحب امرأة حالمة لكى أغتصب حلمها.إن المرأة حلم مغتصب. هذا أجمل. إن احتجاجى لا يسع كلماتى. تخافين من الميت وربما

أنت قاتلته. أنت تتجولين فى شوارع مدينتى التى تلعقها الكلاب المسعورة وأنا أستعيد حياتى فى مرحاض.

عاد ظهرا إلى شقته ليستريح. لم يكن له عمل فى ذلك المساء. وجد خلف الباب منديل أخته الذى تشد به رأسها. تأتى مرة أو مرتين فى الشهر لتنظف له الشقة وتعيد تنظيم أثاثها الذى يتبعثر فى الغرفة. وجد أخاه وأخته. أخشاب تحترق فى المدخنة وقربها ركام من قطع التابوت. استعمل أخوه مطرقة لتكسيره. ينظران إليه بدهشة متأملا تلك الشعلة القوية وصوت انكسار الأخشاب يحزنه. الستائر غير مسدلة. شعاع من شمس الربيع ينير ركنا من الغرفة. أراد أن يجلس. لكنه تذكر لوحة التابوت.

ذهب غاضبا إلى مرسمه وجدها فى مكانها. عاد وجلس. أشعل سيجارة ناظرا بشرود إلى ما يحترق وما لم يحترق بعد. سأله أخوه:

– ماذا حدث لك؟

أشار إلى قطع أخشاب التابوت:

– أنتما تريان، هذا ما حدث.

– لكن ما معنى وجود التابوت هنا؟

– اشتراه لى رجل يعشق التوابيت لأرسمه له فى لوحة.

– أهو ضرورى أن يكون التابوت موجودا أمامك حتى ترسمه؟

– إنها لوحة واقعية.

– لكنك تقول بأن التجريد أكثر حقيقة من الشىء الواقعى.

– نعم.

– إذن.

– إنها لوحة طلبها منى شخص ويجب أن ترسم كما طلبها.

– لكنك لا ترسم قط الأشياء الواقعية.

– نعم.

– وإذن؟.

– هكذا.

– لماذا رسمتها؟

– من أجل خمسة آلاف درهم.

– لم أكن أعلم هذا.

– لم يكن من حقك أن تمسر التابوت.

– صحيح.

قالت أخته:

– ليس فألا حسنا أن يكون تابوت فى شقتك.

– لماذا

– لأنه يجلب الشؤم.

– من قال لك هذا؟

نظرت إليه بحيرة.

بعد صمت طلب منها أن تسلم له مفتاح شقته الذى تحتفظ به. أعطته له وعيناها دامعتان. وضعت يديها على جبهتها ساترة عينها وأخذت تنشج.

رأيتها هناك فى المكان نفسه. تباسمنا.

– لم تعودى لتأخذى قفتك.

– أعتذر عما حدث فى المرة السابقة. سافرت إلى تطوان.

– لا يهم كثيرا. أعرف ما أخافك.

سرنا راجلين. قوة طاغية تدفعنى إلى أن أعرف سره الغامض. وجدت عنده نبيذا. أدخلنى إلى غرفة مرسمه ليرينى لوحاته. أشخاص رسومه أشباح وهياكل بشرية. لا لحم لها ولا دم. لكنها تمشى وتتجمع فى الساحات، تصرخ وتحتج بأيديها وأوضاعها، مراكب صيد مهجورة على الشاطئ بعضها محطم. ألوان رسومه مزيج من الرمادى والأصفر الشاحب والقرمزى القاتم، شباك ممزقة وبحر هائج. عندما سألته عن معنى لوحة يبدو فيها شخص مصلوبا بمسمار مضروب فى جبهته وآخرين فى قدميه وحوله جمع من الأشباح يتطلعون إليه قال:

- لقد إستيقظ الناس فى الصباح فوجدوه مصلوبا.

عدت أتأمل لوحة التابوت.

- من أجل هذا اذن تملك التابوت فى شقتك.

- بعد أن أنهيت رسم التابوت اكتشفت أيضاً أننى أستطيع أن أمارس فيه رياضة نفسية.

- رياضة نفسية؟

ينام فيه حوالى ساعة فيزول تعبه وتستريح أعصابه. يستجمع فيه قوة تركيزه على الأشياء. صنع له النجار الاسبانى نفسه تابوتا آخر فى منزله فى سرية عن فضول الجيران كما فعل فى المرة الأولى. لم يكن يقرأ كثيرا، لكنه إذا بدأ فى قراءة كتاب فلا يتوقف حتى ينهيه. لم نكن نتكلم كثيرا. اشترى لى روايات عربية وفرنسية. يعاملنى بمنتهى اللطف. ارضاء له صرت أشاركه رياضته النفسية. فى المرة الأولى، التى استلقيت فيها داخل التابوت، أغمتنى حمى الخوف ثم صارت رياضة نفسية حقيقية.

ترك لى الرسالة وثلاثمائة درهم فوق الطاولة: عزيزتى نعيمة، أرجو ألا تلومينى. سأسافر بعيدا. أهجر هذه المدينة كما هجرها الذين تمنوا أن يموتوا فيها. إن لعنتها أكبر من لعنتهم. كم أحببت صعاليكها الذين يتزاحمون على كل وافد جديد!

يحبون أخباره. يتآزرون مع جرائمه القديمة والحديثة وأحزانه كما يتآزر العقلاء مع البوالين فى الشوارع.

ليس من عادتى أن أودّع من أحبهم. ما أظن أننا سنلتقى مرة أخرى. أفكر ألا أعود أبدا. أرى من الأفضل أن تعودى إلى الناضور. قد تحدث لك متاعب مادمت لا تملكين أوراقا شخصية وليست أية مهنة تشغلينها. خذى ما شئت من أثاث. إذا كنت فى حاجة إليه. أتركى مفتاح الشقة عند البوابة. سأكتب رسالة إلى أخى لكى يجىء ويستلمه منها. أتمنى لك ما تأملينه. محبتى لك.

ما أن أتممت قراءة الرسالة حتى داهمتنى وحشة وخوف. الغرفة بدأت تظلم. أضأت الغرفة والممر ثم أخذت حاجياتى فى حقيبة. جسدى يرتجف. غمرنى شعور أن أحدا ربما يوجد فى الشقة. ذهبت وفتحت الباب ثم عدت لأجمع حاجياتى بسرعة. سمعت صرير الباب. قفزت لأرى. أخذت مقعدا وأسندته إليه. خطر لى أن ناضل ربما يكون قد جنّ. كلا. إنه أعقل من أن يجن. أنظر إلى التابوت وقلبى يخفق بعنف. أعقل من أن يجن. إننى مخطئة.... خطوات تقترب من الباب. قفزت لأرى. أحد سكان العمارة يمر هابطا قدام الباب. ألقيت نظرة أخيرة على التابوت وخرجت.

عند مسكن البوابة تذكرت أنى تركت المفتاح فى الشقة فى مكان ما.

طنجة 1978

مجنون الورد



الأطفال يصخبون فى الحى.

استيقظت وجلست. تدلت ساقاها على حافة مضجعها. حنت رأسها إلى أمام. يأكلان خبزا مغموسا فى الزيت. يشربان شايا أخضر باردا تركته أمهما فى الابريق. ينظران إليها ماضغين. شاردة ودائخة. تمسك رأسها بيديها وتضغط. تنهض مترنحة واضعة يدها على فمها. تدخل المرحاض. رائحته الكريهة تسعفها على القىء القوى. يمد لها أخوها الأكبر سطلا من البلاستيك فيه دماء. تتهالك على المضجع. تشهق. الأخ الأصغر يخرج إلى الحى. الآخر جالس صامتا أمامها. تجلس. يتناظران بحزن عيناها دامعتان، ذابلتان. تبسم يبسمان. استجاعته بحركة من رأسها ويديها تجلسه جنبها. تضمه إلى صدرها باسمة. تمسك وجهه الصغير بين يديها. تمسح بيديها رشح دموعه باسمة.

الأطفال فى الحى يلعبون الكرة صاخبين. تعطيه قطعة نقدية. يبسم. يبوس خدها ويخرج.

فى الحى صار البؤس أكثر صداقة للصغار والكبار. الجمال فيه يطل فى فضول من الأبواب الصغيرة الكالحة. هو الجمال

نفسه الذى يباع فى شوارع المدينة الجديدة. شاعر الحى الكسيح شاهد على ما يحدث منذ أن كان أهل هذا الحى كلهم يسكنون الأكواخ.

يعلم الصغار والكبار،
بالأجر والشكران،
يقرأ، يكتب رسائل الأحباب،
يؤازر المصاب بالقرآن،
والعشق بالأشعار،
يلاعب الأطفال،
يجالس الشيوخ فى المساء.

طفلة تأكل رغيفا وشوكولاتة. جالسة على عتبة منزلها تنظر إلى أشياء الحى. تستذوق ما تأكله. طفل أمامها فى يده وردة حمراء. يرقص ساقها بين أصابعه النحيلة الوسخة. جوعه فى عينيه يغازل رغيفها. تكف عن الأكل والكسرة قريبة من فمها. ناظرا إليها يشمها وإليها يباسمها يغريها. رقصة الجوع فى عينيه، رجليه، يديه، فى كل جسمه. عيناها الحالمتان تطلبان وردته الراقصة. امتدت يده إلى الفم ويدها إلى الأنف.

تنهض. تستقطر الابريق فى إحدى الكأسين اللزجتين بالزيت. ترشف من الثمالة العكرة. تفرك عينها. تخرج من

حقيبتها علبة سجائر شقراء. تجلس على مضجعها. تشعل واحدة، تنظر إلى صورة أبيها فى اطار صغير بال على الجدار الراشح، تدخن ناظرة إلى صورة أبيها. تسعل بقوة. تتذكر سعال أبيها وخيوط الدم يبصقها. تدوخ من جديد. تقوم إلى المرحاض ساعلة وترمى السيجارة، تقىء بجهد خيطا رفيعا من اللعاب. تتذكر لعاب السكارى ولغوهم وعنفهم وسط صخب الغناء وضباب الدخان. تذهب أمام مرآة صغيرة عالقة قرب مضجعها. وجهها الليلى فى لون الزيت. محتقن وعيناها راشحتان. تشبك يديها أمامها. تضغط على عضلات كتفيها بحركة متواترة وصدرها يخفق مندفعا إلى الأمام. جست نهديها. وجدتهما صلبين. جلست على مضجعها زافرة. كشفت عن ساقيها ثم حكت شعرها الكث الذى لم تحلقه منذ مدة طويلة. تحب كثيرا عريها فى عينيها أكثر مما تحبه فى عيون الرجال. قيل فى أسفل جسدها من الغزل أكثر مما قيل فى أعلاه. مجنون الورد. هكذا سماه أهل الحى. الشاعر الكسيح شاهد. مجنون الورد يعيش مع أمه فى كوخ. يذهبان معا كل صباح إلى المدينة ولا يعودان إلا مساء. هى تتسول وهو يوزع وروده على النساء والفتيات الجميلات. لا شىء يطلب منهن. وروده يشتريها من مال أو يسرقها. قبض عليه وحوكم مرات،

لكن رأفة بجنون الورد يسامح. وردته الأخيرة يرميها دائما للساكنة فى الطابق الأرضى. رحمة بجنون الورد رمت له يوما منديلا. حلم فى تلك الليلة برياض الورود يقطفها بجنون الفرح والمناديل تتساقط عليه من نافذة امرأة المنديل. يوم المنديل خير من ألف يوم. سلام هى المرأة بعد يوم المنديل. هكذا صار يقول لكل من يعرفه. أخذ يؤرخ لحياته بيوم المنديل: هذا حدث قبل يوم المنديل. هذا حدث بعد يوم المنديل. حتى المرأة قبل المنديل ليست هى بعد المنديل. لم يعد يعطي وروده لكل النساء. الباقة المشتراة أو المسروقة هى لامرأة المنديل. مجيئه بالورد ووجودها فى النافذة وعد وميعاد بينهما. حين شفى الزوج من زكام شم رائحة مجنون الورد فى جسد امرأته. حين شفى من مرض عينيه رأى المجنون يقفز من النافذة ورأى امرأته تخرج بخفة من الباب راكضة خلف مجنون الورد. كان أسمن من أن يركض وراءها.

جمّلت وجهها الليلى بالمساحيق وقطرت قطرة زرقاء فى عينيها وفاح منها عطر غال. أخرجت من خزانة ملابسها الصغيرة ثوبا ثمينا أكثر شفافية وملموسة والتصاقا بجسهما من كل أثوابها الأخرى وحذاء جميلا فضى اللون كعباه عاليان. لفته فى ورقة مجلة أجنبية تشتريها من أجل حذائها الجديد

والبالى. احتذت البالى وتأبطت الجديد. قبل أن تخرج ألقت نظرة على دميتها الكبيرة فى لباسها الجميل التى اشترتها بمالها عندما كبرت وصارت تكسب.

أخوها الأصغر جالس قدام عتبة الباب يلاعب قطة صغيرة بكرة ورقية مربوطة بخيط وكلب أمامه سقيم يستلقى فى الظل يغالبه النعاس والتعب. ترك القطة وأقبل يودعها. أعطته قطعة نقدية وقبلته. رجاها أن تعود فى المساء باكرا قبل أن ينام. أخوها الاخر يلعب الكرة بعيدا مع فرقة صغار الحى. نساء وأطفال يستسقون من حنفية الحى فى ضجيج وسباب. طفلة تتبرز قرب السياج. تنكث برازها بعود صغير وتشمه. كلب هزيل يحوم حولها. عيناه تكبرات وذيله يبصبص. فتاتان تتشاتمان حول صف سلطيهما احداهما رفعت ثوبها كاشفة عن أسفلها العارى وقالت لغريمتها فى الصف حول الحنفية:

- هذا ما تساوينه أنت عندى.

أبرزت لها الأخرى وسطاها فى وجهها ثم تشابكتا لكما وشدا وشتما. شبان جالسون على الأرض إلى الحائط مستندين يدخنون بسأم يتأملون ما يحدث بسخرية. صفر لها احد من هؤلاء الشبان بغزل ضاحك وطفلان يستجديانها أعطتهما قطعتين نقديتين ومضت فى الوحل بمسكنة وحرج. بعضهن

ينظران إليها بإعجاب وبعضهن بحقد وحسد.

قرب مدخل الحى الموحل خبأت البالى واحتذت الجديد ثم مشت فى الطريق المزفت إلى المدينة الجديدة.

شاعر الحى الكسيح يكتب عن هذه الأشياء فى حيه وأيضا عن أشياء فى المدينة ما عاشها وما رآها لكنه سميع ممن رآها ورواها. هذه بعض من مذاكراته:

أمس فكرت من جديد فى حياتى من خلال الأصفار. من اليمين إلى اليسار فكرت فى قيمة الأصفار. فكرت فى كل شئ من خلال لا شئ. «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون...» ما أصابك من اليمين فمن الله وما أصابك من اليسار فمن نفسك. الله يقسم وأنتم تجمعون. لكنكم لا تعدلون فى شئ والله خير من يعدل فى الحساب. أن تحطموا كل الأصنام. هذا ما تعرفون. لكن الله لا يمكر بكم إن كنتم تعدمون ما تبنون لأنفسكم.

جنس! جنس! جنس! ها هو ذا شقاؤكم فاطلبوا سعادة الوعد إن كنتم صابرين ومؤمنين. إننى غاضب على هذا الجوع البشرى الذى لا يكف حتى الموت. لم أعد أذكر كبريائى التى كانت تمنعنى من أن أحب. البعد الحلو كان كل عزائى. دائما يغلبنى الفجور الأقوى من العفاف فى نفسى. أبدا ما جاءتنى هى التى فى أوانها أشتهيها. تلك تتحسرون على فراقها وتملون

من بقائها. الجمال! آه! من الجمال الذى يفترسنى مالكا إياه سواى ساخرا منى. لم أفهم امرأة واحدة إلا فى نزوات الخيال: فى الرشفات لا فى رشفة. ربما فكرت فى كلهن. كانت رغباتى موزعة فيهن. الحياة التى فكرت فيها لم أعشها. سلوا ذلك الذى عاشها ولم يفكر فيها.

إنه اعتراف آخر كأس وآخر صديق يغادرنى. سلوا ذلك الذى هو فى غربته. لى صديق يقهره الجمال مثلى يكرهنى فى عينى زوجته ويحبنى فى أعين العابرات فى يحاتى. سلوا ذلك الذى مل من الوجه الأليف. طفت فى البيت الحرام حلول امرأة ثلاثة أيام قهرا وبعدها ما عدت أطوف أكثر من يوم فى شمسه أو فى قمره. إن عقد الاستهلاك هو كل كرامة ذلك الصديق وصار عندى كلاما فى آخر الليل وآخر كأس وآخر افلاس. إذ كنت دوما كارها للفرض فمن يكون لائمى وحاكمى فى السنة؟ نحن اخوة فى الخيار وأعداء فى الجبر.

إن عزاب هذه المدينة ادمنوا على الليل والكأس مثلى أو على الثواب والهجرة قبل الثلاثين فرارا من الجنون أو الجهل والموت. أنا اليوم وحيد مع كأسى. مثل الذين يهربون إلى المشارب والمواخير لعلهم يستعيدون شيئاً من عزوبتهم. إنهم يمجدون الخمر فى المساء ويلعنونه فى الصباح. كل نفس ذائقة عزوبتها

ومجدها ولعنتها. لكننى وجدت فى كل المواخير أخواتى وأخوات أصدقائى. رأيت هذيان الليل يذيب مساحيقهن ويمزق أقنعتهن وأسنانهن ينخرها السوس فى عز شبابهن. سمعتهن يستعدن عفاف طفولتهن فى الأناشيد المدرسية المبتورة فى ذاكرتهن والروايات الحزينة وأفلام الغرام والذكريات القديمة والحديثة.

إنه اعتراف آخر كأس وآخر فلس وآخر صديق يسافر إلى عالم فاتنى أن أزوره فى زمن بلا جواز سفر ولا نقود.

فى الشارع الرئيسى دخلت البنك. أخرجت شيكا من حقيبتها الجلدية الجميلة، الثمينة، ووقعت اسمها بصعوبة ويدها راعشة. نظر الصراف بفضول إلى الشيك وإليها. سحبت مائتى درهم وخرجت مضطربة. اشترت من دكان مجلة نسوية مصورة وعلبة سجائر مذهبة.

فى قاعة شاى مدام بورط جاءتها الخادمة الجميلة ووقفت بلطافة. إنها تعرف سخائها معها. قالت بصوت تشوبه بحة تعب الليل:

- أعطينى عصير برتقال، حليبا باردا وخبزا محمصا بالزبدة والمربى.

فى السوق الكبيرة صاحت أمها وعيناها على حارس الأمن يطارد بعيدا عنها البائعات المتجولات مثلها.

– ها البصل! ها الفجل! ها الليمون!

فى الحى صرخ أخوها اللاعب:

– جوول..!

وأخوها الأصغر يلاعب القطة الصغيرة قرب شاعر الحى الكسيح والكلب السقيم ينعس أمامهما، وطفل فى يده طائر دورى يموت يبول عمدا على حذائها فى السياج

طنجة 1978

الفهرس

محمد شكرى :

- واحد من أهم كتاب الرواية العربية الحديثة ، تتميز لغته باقتصاد قريب من الشح ، يزكى هذا الانطباع توزيع التركيب العام على جمل قصيرة تسندها أفعال المضارع السائدة فى معظم أعماله التى من أبرزها (الشطار) . (الخبز الحافى) .

لوحة الغلاف :

وجهان / ٧٠ × ١٠٠ سم خامات متنوعة

صدر من هذه السلسلة

- عيون الغرباء .... فتحى غانم
- السرداب رقم 2 .... يوسف الصائغ
- حكايات للأمير .... يحيى الطاهر عبد الله
- مجنون الورد .... محمد شكرى

رقم الايداع : ٩٧/٩٧٣٠

الأمل للطباعة والنشر

مجنون الورد

دخل محمد شكرى المجال الأدبى ، فأثار انتباه الأدباء المغاربة الشباب « المتعلمين » فى المعاهد والكليات ، وأصبح صوتا متميزا بتجربته المدخرة ، وبتعبيره العارى من الحذلقة والتصنع .. وكما فى الحياة ، سيحاول الكثيرون تهميش كتابات محمد شكرى لأنها « وقحة » تسمى الأشياء ولا ترمز لها ، تختار نماذجها من المنبوذين والشواذ وممن يعيشون فى الحضيض

آفاق الكتابة

شركة الأمل للطباعة و النشر